تفسير عصري ينشر لأول مرة

من أشراط الساعة الكبرى

خروج دابة من الأرض المجاورة

تأليف
يوسف محمد عمرو

الدار الذهبية





الدار الذهبية للطبع والنشر والتوزيع

إهداء

إلى علماء ومثقفي الحضارة الغربية حيثما وجدوا لكي يتأكدوا من أن الإسلام دين العلم والمستقبل. . .

وإلى المستنيرة عقولهم من أبناء هذه الأمة كي يتعمقوا في البحث والاجتهاد عسى أن يكتشفوا كل جديد ومفيد. . .

يوسف محمد عمرو



تقديم

بقلم فضيلة الدكتور عبد الفتاح عمرو

الحمد لله الذي أكرم البشرية بالقرآن العظيم، وأضاء العقول بهديه الكريم، والصلاة والسلام على منارة العلم وإمام العلماء، سيدنا محمد النبي الأمي الأمين، وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين وبعد:

فإن العلم من أعظم الأمور التي تستحق أن يشتغل بها الإنسان، ويبذل فيها وقته وجهده وماله، وخير العلم تدبُّر آيات الله تعالى وفهم أسرار كتابه العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وهذا البحث الذي بين أيدينا هو محاولة لفهم كتاب الله تعالى وأحاديث رسوله ﷺ المتعلقة بأشراط الساعة الكبرى وخاصة ما يتعلق منها بخروج الدابة، فهماً يعبر عن تدبُّر صاحب البحث وتأملاته الخاصة بهذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة على نحو معين ووفق نهج خاص بمؤلف هذا البحث، لا أعرف -على حد اطلاعي- من قال به غيره أو تطرق إلى بحثه على هذا النحو من الفهم سواه وقد نوافقه عليه أو لا نوافقه، إلا أننا في النتيجة لا نملك إلا أن نعترف بالجهد المبذول في التدبر والتأمل بنصوص كتاب الله وسنة رسوله وربطها مع بعضها في الاستدلال واستخلاص النتائج وتعزيز ذلك بما توصل إليه العلم الحديث من حقائق كونية.

وهذا البحث الذي أسماه صاحبه خروج الدابة من الأرض المجاورة (من أشراط الساعة الكبرى) يشتمل على عدة مسائل وأفكار أراد صاحبها طرحها للحوار، وأورد الدليل على ما يراه فيها موافقاً بذلك أقوال بعض المفسرين حيناً ومخالفاً أقوال بعضهم أحياناً أخرى مستدلاً بالكتاب والسنة على فهمه ورأيه بالقدر الذي تمكَّن من الاطلاع عليه، مؤيداً ذلك بما قاله علماء الفلك المعاصرون.

ومن أهم هذه المسائل التي وردت في البحث -مسألة تعدد الأرضين في

الكون- ويرى الباحث أنها سبع مجموعات كالسموات تماماً وليست سبع أرضين، وهذا يقتضي حسب رأيه أن يوجد في الكون أكثر من سبع أرضين. ومنها مسألة دواب السموات والأرض وهو يرى أن هذه الدواب من عالم الإنس وليست من عالم آخر لذلك فالإنسان موجود في السماء أيضاً كما أن الجن موجودون فيها تحقيقاً لغاية من خلقهم وهي العبادة، وهذا يقود الباحث لمسألة عقائد أهل السموات والأرض وهو يرى أن منهم المؤمن ومنهم الكافر ومسألة وحدة عقيدة الإيمان في الكون وتعدد الرسل وختم الرسالات تماماً كما هو الحال على وجه الأرض.

ثم ينتقل الباحث إلى ذكر أشراط الساعة الكبرى مركزاً على خروج الدابة ويأتي بالأدلة على أنها من الأرض المجاورة وأنها سوف تصل إلينا بمركبة فضائية متطورة.

ثم يختم بحثه بذكر أدلة تثبت وجود حضارة في السماء وأنها في أحد الكواكب على بعد مسيرة خمسمائة عام من أرضنا، ومسألة احتمال قبول التوبة زمن خروج الدابة إلى غير ذلك من أبحاث تستحق الوقوف عندها وجلاء أمرها.

هذا ومما يشفع للباحث في كل ما كتبه أنه صادق اللهجة مخلص النية، تلمس ذلك في كل استدلال يأتي به لبيان رأيه وهو يكرر أدلته مرات عديدة ليقنع القارىء بما أقنع به نفسه، كما يستشعر القارىء من خلال كلام الباحث غيرتَه على دينه وثقته المطلقة بنصر الإسلام ولو بعد حين مستدلاً على ذلك بأحاديث أشراط الساعة وموظفاً النصوص الشرعية لرفع اليأس عن الأمة، والنظر إلى المستقبل بعين المتأمِّل الواثق بما عند الله تعالى داعياً المسلمين المعاصرين إلى عدم الاغترار بما يرونه من قوة عدوهم وتفوقه بالعدد والعدة وضعف قدراتهم وإمكاناتهم، فإن الله غالب على أمره ولو كره الكافرون.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أشكر الباحث- الأخ يوسف عمرو- على ما بذله من جهد في إعداد هذا البحث وعلى هذه الروح الإيمانية الصادقة النابعة من الغيرة على الإسلام والمسلمين سائلاً المولى جلَّت قدرته أن ينفع الناس بهذا

البحث وأن يجعله في ميزان حسناته يوم القيامة وأن يثيبه على ما أصاب به من فهم ويغفر له ما أخطأ فيه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. عبد الفتاح عايش عمرو

رئيس المفتشين للمحاكم الشرعية بالأردن

١٣/٨/١٩٩٥

★ ★ ★

«مقدمة المؤلف»

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين وبعد:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] - قال القرطبي ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ يعني القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في هذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد بقولك وفعلك، فالرسول ﷺ مبين عن الله عز وجل مراده مما أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة وغير ذلك مما لم يفصله. وعلى هذا يكون موضوع البحث ليس ترفاً فكرياً كما يظن البعض، وإنما هو توضيح وفهم لنصوص من كتاب الله وسنة رسوله تتعلق بالوعد والوعيد لأن خروج الدابة علامة كبرى للساعة. وقد نزل فيها نص صريح تأكيداً لأهميتها وعظيم شأنها مما يستوجب الاهتمام بخبرها وتجلية حقيقة أمرها للناس، وإذا كانت النبوة قد رفعت بموت النبي ﷺ فإن تعاليم الأنبياء ورسالة الإسلام لم ولن ترفع بل ستظل باقية بقاء الزمان والمكان، من هنا قيل (من القرآن ما يفسره الزمن).

وقال عليه السلام أيضاً تأكيداً على استمرارية العطاء لهذا الدين (العلماء ورثة الأنبياء) لذلك كان حقاً على من علم مسألة من الدين أن يعلمها لغيره وينشرها ان استطاع، وبناءً عليه فقد وضعت هذا الكتاب الذي بدأت فكرته في الأساس بمحاولة كتابة مقال في إحدى الصحف المحلية تحت عنوان خروج الدابة، ولكن بعد أن شرعت في الكتابة وأخذت أسجل بعض الملاحظات والخواطر والأفكار والإشارات التي استوحيتها من كتاب الله، وجدت أن الموضوع من الأهمية والعمق والاتساع بحيث يستحق أن يُؤَلَّف فيه كتاب، لذلك جاء هذا المؤلفُ تحقيقاً لهذه الرؤية وقد ضمنته كل الدلائل على وجود عقلاء غيرنا في الكون وبينت أنهم سوف يصلون إلينا عاجلاً أم آجلاً، كما يعتبر هذا البحث

الأول من نوعه في المكتبة الإسلامية لأنه غير منقول من كتب أو مؤلفات أخرى، بل جاء ثمرة جهد عقلي وتفكير خالص وتدبر مني لآيات الله، وأنه على الرغم من غرابة الأفكار التي تضمنها كتابي مما سيجعل البعض يعتقد أنه أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة فإنني على قناعة بأن المستقبل سيؤكده. وأنه سوف يأتي يوم على الناس يكون فيه موضوع هذا البحث محل اهتمامهم وموضع دراسة من قبل العلماء المختصين، وإلى أن يتحقق ذلك أرجو الله تعالى ان يقيض لهذا الكتاب من يترجمه إلى لغات مختلفة لكي يقرأه أكثر عدد من الناس، وخاصة العلماء في الغرب والشرق ممن يهتمون بمثل هذه البحوث، عسى أن يدرك بعضهم عظمة الإسلام وسبقه للعلوم في تقرير بعض الحقائق الكونية الهامة فيؤمنوا به ويعملوا بمنهجه. وفي النهاية لا بد أن أشكر كل الأساتذة والأخوة الذين أبدوا ملاحظاتهم القيمة على هذا البحث وأخص بالذكر الأخ الدكتور عبدالفتاح عمرو على تفضله بتدقيق وتقديم هذا الكتاب فجزاه الله عني خير الجزاء كما أشكر زوجتي العزيزة أم عمرو على ما بذلته من وقت وجهد في نسخ ما كنت أسوده مرة بعد أخرى دون أن تبدي أية شكوى أو تذمر، ولا يفوتني في هذا المقام أن اؤكد على أن هذا المؤلف لا يعدو كونه وجهة نظر وفهم جديد لبعض ما نزل إلينا، فإن كان فيه خطأ فهو مني واستغفر الله تعالى منه، وإن كان صواباً فمن الله تعالى وله الحمد حيث هداني لهذا وما كنت لأهتدي لولا أن هداني الله، كما اسأله تعالى أن يجعل هذا الجهد مباركاً فيه وخالصاً لوجهه، وأن يتقبل مني ومن القارىء الكريم صالح الأعمال وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والله من وراء القَصد.

يوسف محمد عمرو

تعدد الأرضين في الكون

لقد نص الكتاب والسنة على وجود أكثر من أرض واحدة في الكون، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] - أي جميع الأرضين في الكون قبضته يوم القيامة، وقوله تعالى أيضاً: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ [الشورى: ٥]. أي من فوق الأرضين، ثم قوله تعالى كذلك: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. جاء في القرطبي وقد اختلف فيهن على قولين، أحدهما وهو قول الجمهور، أنها سبع أرضين طباقاً بعضها فوق بعض بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والسماء وفي كل أرض سكان من خلق الله. والثاني قول الضحاك ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي سبع من الأرضين ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات. والأول أصح لأن الأحاديث دالة عليه في الترمذي والنسائي وغيرهما». وأنا أرجح من خلال فهمي للقرآن والسنة أن الأرضين أكثر من سبعة بكثير بدليل البينات الآتية: لقد ورد لفظ السماء في كثير من الآيات بمعنى الغلاف الجوي للأرض نحو قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ [الأنعام: ٦] وقوله كذلك: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩] وقوله أيضاً ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] وقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان]. مما يعني أنه يجوز إطلاق السماء على الغلاف الجوي للكواكب، وبما أن هناك مليارات الكواكب والأجرام في الكون وكل كوكب منها له غلاف جوي وإن اختلف هذا الغلاف بطبيعته عن غلاف الأرض، إذ ليس بالضرورة أن تكون كل الكواكب متشابهة في غلافها الجوي لأن الكواكب مختلفة في أحجامها وأوزانها وكثافتها وبعدها عن مركزها مما يترتب على ذلك اختلاف في غلافها الجوي أيضاً، ولكنه مع ذلك يبقى غلافاً ويصح تسميته بالسماء، من هنا وبناءً عليه فإنه لا بد أن يكون هناك مليارات السموات مقابل هذه الأجرام، الأمر الذي يفسر بأن

السموات السبع والأرضين السبع ليست سبعة أجرام أرضية تقابلها سبع سموات فقط، وإنما هي سبع مجموعات من السموات والأرضين، أي أن السماء الواحدة من هذه السموات السبع قد تتكون من ملايين المليارات من السموات، وكل هذه السموات والأرضين والكواكب التي تقابلها تسمى سماءً لأن السماء اسم جنس وتفيد معنى الجمع، ولعل ما يؤكد ذلك أيضاً هو كون السماء قد وردت في بعض الآيات بمعنى الجمع نحو قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾. [الأنبياء: ١٠٤] وهذا كقوله: ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر: ٦٧]. فالسماء في الآية الأولى هي نفس السموات في الآية الثانية وقوله تعالى كذلك: ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد: ٢١]. يقابلها قوله تعالى: ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وآيات أخرى كثيرة كلها تؤكد جواز اطلاق السماء على جمع من السموات مما قد يفسر لنا قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ [البقرة: ٢٩]. حيث جاءت السماء في هذه الآية بمعنى الجمع. لأن السماء في اللغة جمع سماوه في قول الأخفش، وسماءه في قول الزجّاج، وجمع الجمع سماوات وسماءات فجاء قوله: ﴿ فَسَوَّىٰهُنَّ ﴾ إما على أن السماء جمع، وإما على أنها مفرد اسم جنس[1] وفي الحالتين فإن السماء تفيد معنى الجمع والدليل قوله تعالى: ﴿ فَسَوَّىٰهُنَّ ﴾ بصيغة الجمع مما يؤكد أنه تعالى كان يتحدث عن جمع من السموات لا سماء واحدة، لانها لو كانت سماءً واحدةً وحيدة لكان قد جاء قوله (**فسواها**) بصيغة المفرد، ولكنه تعالى لم يقل ذلك بل قال: ﴿ فَسَوَّىٰهُنَّ ﴾ ليؤكد لنا أن المقصود بالسماء في هذه الآية الجمع لا المفرد، الأمر الذي يعني أن السماء هنا اسم جنس لأنها تعبر عن معنى التعدد للسموات قبل تنظيمها في سبع مجموعات وهذا هو معنى قوله: ﴿ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾. أي أنه تعالى سواهن سبع مجموعات من السموات والأرضين. يؤكد هذا ما جاء في تفسير المراغي في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾. قال: «الله هو الذي خلق السموات السبع وخلق مثلهن في العدد من الأرضين، وهذا

---

(١) تفسير القرطبي المجلد الأول ص٢٦٠.

الأسلوب في اللغة لا يفيد الانحصار في السبعة وإنما يفيد الكثرة»[1] وقد جاء في الحديث الشريف ما يؤكد هذا المعنى أي أن السموات والأرضين أكثر من سبعة (روى الترمذي عن أبي هريرة قال: بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب؛ فقال نبي الله ﷺ: «هل تدرون ما هذا»؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: «هذا العنان هذه روايا الأرض يسوقه الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه -قال- «هل تدرون ما فوقكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال «فإنها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف ثم قال- «هل تدرون كم بينكم وبينها» قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال «بينكم وبينها خمسمائة عام» -ثم قال- «هل تدرون ما فوق ذلك»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: سماءين بعد ما بينهما خمسمائة سنة، ثم قال كذلك حتى عد سبع سموات ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض- ثم قال: «هل تدرون ما فوق ذلك»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: فإن فوق ذلك العرش بينه وبين السماء بعد ما بين السماءين -ثم قال: «هل تدرون ما الذي تحتكم»؟ قالوا: - الله ورسوله أعلم؛ قال: فإنها الأرض. ثم قال: «هل تدرون ما تحت ذلك»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن تحتها الأرض الأخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة، حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة[2].

وقبل أن أبدأ في بيان أن هذا الحديث يدل عن وجود أكثر من سبع أرضين، لا بد من وقفة عند قوله عليه السلام عن السماء (فإنها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف) لأن فيه من المعاني ما لم يعرف إلا في عصرنا هذا، والرقيع كما جاء في لسان العرب: اسم سماء الدنيا لأن الكواكب رقعتها سميت بذلك لأنها مرقوعة بالنجوم، وقيل: سميت بذلك لأنها رقعت بالأنوار التي فيها، والسموات السبع يقال أنها سبعة أرقعة وفي الحديث الشريف عن قول الرسول ﷺ لسعد بن معاذ رضي الله عنه حين حكم في بني قريظة (لقد حكمت بحكم

---

(١) تفسير المراغي الجزء ٢٨-٣٠ ص١٥١.

(٢) رواه الترمذي. كتاب الجنة ٨.

الله من فوق سبعة أرقعة)[1].

والرقعة قطعة من الأرض تلتزق بأخرى ويقال رقع الثوب أي ألحم خرقه، ومن هذا يتبين أن السماء ليس فيها فراغات أو عدم، كما أنها ليست قطعة واحدة غير مكونة من جزيئات، ولكن السماء هي نتاج التحام وتداخل موجات الضوء مع بعضها البعض، ولذلك سميت الرقيع لأنها مرقوعة بالأنوار والله أعلم. أما كون هذا الرقيع سقفاً فيؤكده قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وهذا يدل على أن هناك شيئاً ما تحت هذا السقف، كما يدل أيضاً على أن السقف لا بد له من أعمدة ترفعه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد: ٢]. وأنا أرجح أن تكون هذه الأعمدة غير المرئية هي الجاذبية أو نحوها من المسميات مما لا نعلم، أما الشيء الذي تحت السقف فهو الأرض، وقد سميت السماء سقفاً لأنها للأرض بمثابة السقف للبيت، مما يعني أن كل أرض لا بد أن يكون لها سماء كما أن كل سماء لا بد أن يكون تحتها أرض، أما وصفه عليه السلام للسماء بأنها (موج مكفوف) فهو إعجاز لم يسبقه إليه أحد. وقد أكد العلم الحديث صحة هذا الوصف إذ قال العلماء: إن الضوء يملأ السماء ويسلك فيها سلوك الموجات. فالسماء إذن موج مكفوف أي أمواج ضوئية متداخلة وملفوفة على بعضها البعض، لأن لفظ (مكفوف) في اللغة من كفّ، وقد جاء في لسان العرب كف الشيء: إذا جمعه، وفي حديث الحسن أن رجلاً كانت به جراحة فسأله كيف يتوضأ؟ فقال: كُفَّهُ بخرقة، أي اجمعها حوله. فيكون المعنى بناءً عليه أن السماء موج مكفوف أي أمواج ضوئية متداخلة بعضها مع بعض، وهذا ما أكده العلم الحديث أخيراً حيث جاء في كتاب جولات في الفكر العلمي ص١٦٦. للدكتور هشام غصيب ما نصه (أن الضوء يتداخل مع بعضه مثلما تتداخل الموجات الصوتية وغيرها من الموجات معاً، والتداخل هو العملية التي يمكن بموجبها انتاج ظلام دامس من مزج أو (التقاء) شعاعين أو أكثر من الضوء تحت ظروف مادية معينة وهو خاصية جوهرية من خواص الموجات، بمعنى أنه

---

(١) متفق عليه.

يميزها عن غيرها من الموجودات المادية فهو يتبدى في أوضح صورة عند التقاء أو (تداخل) قاع موجة بقمة أخرى مساوية للموجة الأولى من حيث مقدار الاتساع، لذلك فإن بروز هذه الظاهرة في حال الضوء يدل بصورة قاطعة على أن الضوء يملك خواص موجية، أو قل إنه يسلك سلوك الموجات على نطاق معين). وهنا أريد أن أسأل من الذي أخبر محمداً قبل ألف وأربعمائة سنة ونيف أن الضوء يسلك سلوك الموجات؟ أليس هو الله تعالى؟ ألا يدل هذا الحديث على أن محمداً مرسل من عند الله؟ ثم كيف عرف محمد ﷺ أن في الكون أرضين متعددة لولا أنه رسول الله، نعم إن هذا الحديث يؤكد من حيث المعنى على وجود أكثر من سبع أرضين في الكون، لأنه عليه السلام حين ذكر بأن فوقنا سبع سموات وتحتنا سبع أرضين لم يكن يقصد أن الأرضين في جهة والسموات في جهة أخرى، أي أن الأرضين خارج السموات السبع، كلا فإن الأمر ليس كذلك لأن كلمتي (فوقكم) و(تحتكم) المذكورتين في الحديث هما مسألتان نسبيتان، لأن التحت قد يصبح فوق والفوق قد يصير تحت بعد ساعات نتيجة دوران الأرض حول نفسها، من هنا فإن الرسول عليه السلام حين ذكر ذلك كان يتحدث مع أصحابه مراعياً مستوى إدراكهم لهذه الأمور انطلاقاً من مبدأ (خاطبوا الناس على قدر عقولهم) ذلك أن الإدراك العام في ذلك الوقت لم يكن يعرف سوى سبع سموات وسبع أرضين، وكان مفهومهم عن السموات أنها فوقهم وعن الأرضين أنها تحتهم، لذلك جاء الحديث يحمل هذه الألفاظ (فوقكم وتحتكم) انسجاماً مع فهمهم للسموات والأرضين دون أن يتعارض ذلك مع حقيقة الأمر، لأن الإنسان حين يتعمق في فهم الحديث ويتدبر معناه يجد أن له دلالة أخرى أبعد من ذلك، إذ أنه يكشف عن وجود أكثر من سبع أرضين في الكون، لأن كل سماء من هذه السموات التي وصفت في الحديث بأنها فوقنا لا بد أن يكون لها أرض تقابلها، كما أن كل أرض تحتنا لا بد أن يكون لها سماؤها، لأنه لا معنى لقولك سماء دون وجود أرض تقابلها والعكس بالعكس مما يعني أن قوله عليه السلام في بداية الحديث بأن فوقنا يوجد سبع سموات يقتضي معنى وجود أرضين مقابل هذه السموات، كما أن قوله في نهاية الحديث بأن هناك سبع أرضين تحتنا يقتضي معناه وجود سموات مقابل هذه الأرضين، لأن ذكر الأرض يقتضي وجود السماء كما أن ذكر السماء يقتضي معنى وجود

الأرض، لأن السماء كل ما علاك والأرض كل ما تحتك ولا معنى لقولك تحت إن لم يكن هناك فوق والعكس بالعكس. وقد تقدم بيان هذا مفصلاً في كتابي الإسلام ونشأة الكون فليرجع إليه من شاء التوسع، ولكن يكفي هنا أن نعلم بأن الله سبحانه قد خلق سبع مجموعات من السموات والأرضين وهو معنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] فالمثلية هنا ليست محصورة في سبعة أجرام فقط وإنما في تعدد هذه الأجرام، أي أنه تعالى مثلما جعل السموات الكثيرة سبع مجموعات فإنه فعل ذلك بالأرضين أيضاً، إذ جعلها سبع مجموعات كالسموات تماماً، وبهذا تكون الأرضون أكثر من سبعة، لأن قوله -عليه السلام-: (بين كل أرضين مسيرة خمسمائة عام)[1] يؤكد هذا المعنى. فلو كان في كل سماء أرض واحدة فقط -كما يقول بعض العلماء- لما جاء الحديث على هذا النحو، لأن الخمسمائة سنة التي تفصل بين هذه الأرض والتي تليها، ولنفرض أنها سنوات ضوئية فإن هذه المدة إذا ما قيست بالمسافات الكونية لا تكاد تذكر، لأن مجرتنا وحدها طولها ١٠٠,٠٠٠ سنة ضوئية تقريباً، وسمكها يزيد على ١٠,٠٠٠ سنة ضوئية مما يعني أن الأرض الثانية ليست بعيدة عنا كثيراً لأنها تقع في نفس المجرة، وبناءً عليه يكون هناك أكثر من سبع أراضي في الكون، لأننا لو قلنا بأن كل سماء فيها أرض واحدة فإن الأرض الثانية على الأقل لا تكون في السماء الثانية، وإنما في سمائنا نحن بل وفي مجرتنا بالذات. وبهذا يكون عدد الأراضي في الكون أكثر من سبعة. الأمر الذي يؤكد بطلان مبدأ حصر الأرضين في سبعة أجرام فقط، لأن المقصود بالسبع أرضين هو سبع مجموعات من الأرضين وليست سبعة كواكب، من هنا وبما أنه قد تبين بطلان تأويل السبع أرضين بسبعة أجرام أرضية فقط، فإنه ليس هناك ما يمنع من تعدد هذه الأراضي في الكون لتصل إلى ملايين أومليارات الأراضي، وخاصة إذا علمنا أن هذه السموات في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾. إنما مثلها كمثل البناء المكون من سبع طبقات وكل طابق منها يوجد فيه ألف غرفة مثلاً، وهذه الغرف التي في كل طابق تكون أرضيتها وجدرانها بمثابة الأرض ويكون سقفها سماءها، يؤكد ذلك قوله تعالى:

(١) سنن الترمذي.

﴿ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝ ﴾ [الطور] قال القرطبي السقف المرفوع يعني السماء سماها سقفاً لأنها للأرض كالسقف للبيت، بيانه ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفًا مَّحۡفُوظًاۖ ﴾ [الأنبياء: ٣٢]. فيكون الطابق الواحد في هذا المثال مكوناً من ألف أرض وألف سماء، وهكذا الأمر في كل البناية مما يعني أن هذه السموات والأرضين التي يتألف منها كل طابق يصح أن يطلق عليها اسم السماء الأولى أو الثانية أو الثالثة مثلاً، لأن السماء في هذه الحالة تكون اسم جنس مثل الأرض تماماً، وبهذا تكون السموات السبع هي سبع مجموعات من السموات والأرضين وليست سبعة أجرام أرضية مع سمواتها فحسب. أي أنها سبع طبقات بعضها فوق بعض، وفي كل طبقة منها يوجد أراض وسموات كثيرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ۝ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ۝ ﴾ [نوح] لاحظ معي قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا ﴾ فإنه يؤكد على أن القمر اسم جنس لأن كلمة ﴿ فِيهِنَّ ﴾ تعود على السموات السبع مما يعني أن الله سبحانه قد جعل في كل سماء من مثل القمر أقماراً متعددة، كما خلق أرضين وشموساً متعددة أيضاً لأن وجود القمر يقتضي وجود كوكب أو أرض يدور حولها، كما يقتضي وجود شمس كذلك لأنه بدون وجود شمس لا يكون معنى لوجود القمر، ذلك أن القمر يستمد نوره من أشعة الشمس ويعكسها على أهل الأرض. لذلك كان تعدد الأقمار في السموات يرمز إلى تعدد النظام الكوكبي في الكون. وبناءً عليه تكون هذه الآية دليلاً آخر على وجود مجموعات شمسية كثيرة في الكون، وإلى هنا نخلص إلى نتيجة، هي أن قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ ﴾ إما أن يكون معناه أنه تعالى قد خلق سبع مجموعات من السموات والأرضين، أو أنه تعالى قد خلقها سبعاً بالعدد فالله وحده أعلم بحقيقتها، غير أنني أرجح بأنها سبع مجموعات وأن هذا الفهم في رأيي لا يخالف النص وإنما يوضحه فقط، لذلك فإن كل أرض من هذه الأراضي لا بد أن يكون فيها حياة، وهذا هو الفرق بين الأرض وغيرها من الكواكب.

الفرق بين الأرض والكواكب

ورد في الحديث الشريف ما يشير ضمناً إلى الفرق بين الأرض والكواكب فقال عليه السلام: «اللهمَّ ربَّ السموات السبعَ وما أظلت ورب الأرضين وما أقلت وربَّ الشياطين وما أضلت كُنْ لي جاراً من شر خلقكَ كُلِّهم جميعاً. . . الخ»[1].

لاحظ في هذا الحديث أنه عليه السلام قال: «ورب الأرضين السبع وما أقلت» ولم يقل الكواكب مما دلَّ على أن هناك فارقاً في المعنى بين لفظ الأرض وكلمة الكوكب إذ أن كل أرض هي كوكب ولكن ليس كل كوكب أرضاً، فالأرض هي كل كوكب عليه حياة لذلك قال عليه السلام: «الأرضين وما أقلت» ولم يقل الكواكب وما أقلت، لأن الكواكب في واقع الحال لا يقللن شيئاً ولو أن الرسول ﷺ قال الكواكب وما أقللن بدلاً من قوله: (الأرضين) للزم أن يكون في كل كوكب حياة الأمر الذي يخالف الموجود وينافي الحقيقة.

ولكن لمّا كان الرسول عليه السلام لا ينطق عن الهوى وكلامه وحيٌ يُوحى فقد جاء قوله هذا مطابقاً للواقع ومعبراً عنه بأحسن ما يكون التعبير إذ بيّن لنا عليه السلام ما كنا نجهله إلى الأمس القريب وهو أن الأرض ليست كبقية الكواكب، وهذا ما أكده العلم الحديث وكشفت عنه تقارير سفن الفضاء عبر رحلاتها الاستكشافية بين كواكب المجموعة الشمسية حيث أكدت هذه التقارير انعدام وجود الحياة على غير الأرض من بين كل الكواكب التابعة لمجموعتنا الشمسية مما ألقى الضوء الكاشف على حقيقة كبيرة وهامة وهي عدم إمكانية وجود الحياة على أكثر من كوكب واحد في كل مجموعة شمسية لأن الشروط المادية لنشأة الحياة بموجب ناموس الله في الكون لا يمكن أن تتوفر على كوكبين اثنين ينتميان إلى نفس المجموعة، إلا إذا كان هذان الكوكبان متماثلين في كل شيء في الجاذبية مثلاً والكثافة والحجم

---

(١) رواه الترمذي.

والبعد عن الشمس... الخ.

وهذا أمرٌ يكادُ يكون مستحيلاً من الناحية العلمية والواقعية، ومن هنا يمكن القول أو حتى الجزم بأن بقية الأراضي العامرة بالأحياء والتي أشارت إليها الآيات الكريمات والأحاديث الشريفة يقعن خارج مجموعتنا الشمسية حيث توجد كل منها في مجموعة منفصلة ومستقلة عن الأخرى ويفصل بينهن مسافات شاسعة. أما عن نوع هذه الحياة وهل هي شبيهة بحياتنا أم لا فهذا ما سأجيب عليه في الصفحات القليلة التالية.

* * *

دواب السموات والأرض

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى] والدابة من دبّ يدبّ فهو دابة، وقيل اشتقاقها من الدبيب والدبيب عبارة عن الحركة الجسمانية، فالدابة إذن اسم لكل حيوان جسماني يتحرك ويدب. وقد انبأنا الله تعالى بوجود هذه الدواب في السموات إضافة إلى وجودها في الأرض بقوله في الآية ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾. قال ابن كثير (فيهما) أي ذرأ فيهما أي في السموات والأرض وقال غير واحد مثل ذلك، والبث معناه التفريق ويقال: بث الريح التراب إذا أثاره، وهذا يعني أن هذه الدواب مبثوثة في السموات في أكثر من مكان أي أنها ليست في مكان واحد في السماوات، كما أكد لنا تعالى أن منشأ هذه الدواب جميعها هو الماء بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور]. قال القرطبي وغلّب من يعقل لمّا اجتمع مع من لا يعقل لأنه المخاطب والمتعبد ولذلك قال ﴿فَمِنْهُم﴾ وقال: ﴿مَّن يَمْشِى﴾.» أقول وبالله التوفيق: قد يكون مقصود ألفاظ من يعقل في الآية هو التعبير عن احتمال وجود دواب عاقلة في السموات تمشي على بطنها أو على رجلين مثل الإنسان، وربما على أربع أيضاً إذ من غير المستبعد أن يكون المعنى كذلك، لأن النص عام ويشمل كل الدواب في السموات والأرض، كما أنه يحتمل هذه المعاني جميعاً ويؤكد بأن ذلك يدخل ضمن مشيئة الله وقدرته، وقد أكد -تعالى- أن هذه الدواب على اختلاف أشكالها وألوانها قد خلقت جميعها من ماء بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾. قال القرطبي لم يدخل في هذا الجن والملائكة لأنا لم نشاهدهم ولم يثبت أنهم خلقوا من ماء، بل في الصحيح الملائكة خلقوا من نور والجن من نار، وهذا ما أكده قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [النحل: ٤٩] قال الدكتور الغمراوي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «فهنا ذكر

الاسم الموصول مرتين لا مرة واحدة كما في آية الشورى، مرة متعلقة في السماء ومرة متعلقة في الأرض، ليذهب (سبحانه) بكل شك في أن قوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ بيان لما في السماء ولما في الأرض، ويكون ذكر الملائكة بعد ذلك فيمن يسجد مانعاً من تأويل دواب السماء بالملائكة، عند من لا يدركون أن الملائكة لا يليق بهم أن يعبر عنهم بالدواب»[1] ولعل ما يؤكد صحة هذا التفسير أيضاً هو قوله -تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد]. فالغدو هنا جمع غداة وتعني صبيحة اليوم التالي، والآصال جمع أُصل. والأُصل جمع أصيل وهو ما بين العصر والغروب، ومن المعلوم أن الغدو والآصال هما كلمتان تعبران عن حركة الأرض المحورية أمام الشمس والتي ينتج عنها ليل ونهار وتغير في الأوقات. وهذا يعني أن تلك المخلوقات التي في السموات إنما تعيش على أرضين مثلنا، ولها نفس النظام الفلكي الذي لنا أو ما يشبه نظامنا، لأن ظهور الظلال لا يتم إلا بتحقق شرطين اثنين. الأول:- أن تكون تلك المخلوقات مشخصة مثلنا، أي لها طول وعرض وارتفاع والثاني:- أن تكون تلك المخلوقات في مكان مواجه للشمس. لأنه دون وجود ضياء لا يظهر ظلال لشيء وهذا ما أكده تعالى بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان]. ومن هنا تكون هذه الآية في سورة الرعد دليلاً على وجود دواب عاقلة في السموات، وأن هذه الدواب مشخصة مثلنا ومرئية وهذا ما أوحى به تفسير سيد قطب للآية حيث قال رحمه الله «ويضم إلى شخوص من في السموات والأرض ظلالهم كذلك، ظلالهم بالغدو في الصباح وبالآصال عند انكسار الأشعة وامتداد الظلال، يضم هذه الظلال إلى الشخوص في السجود والخضوع والامتثال وهي في ذاتها حقيقة فالظلال تبع للشخوص»[2] ومن هذا يفهم أن تلك المخلوقات التي تسجد لله ببدنها وتسجد معها ظلالها كذلك ليست ملائكة أو من الجن، لأن الملائكة من نور والجن من نار -كما تقدم- وهذان المخلوقان

---

(١) الإسلام في عصر العلم ص٢٥٢.

(٢) الظلال - المجلد (٤)، ص٢٠٥٢.

غير مجسمين مثلنا، ولا يخضعان لنفس نظامنا وبالتالي لا يمكن رؤيتهما إلا إذا تخليا عن صورتهما الحقيقية، ومن كانت هذه حاله وتلك صفته لا يمكن أن يكون له ظلال، وعليه يكون المقصود بمن يسجد في هذه الآية ويسجد معهم ظلالهم -كذلك- هم دواب السموات والأرض المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ ﴾ [النحل: ٤٩]. والمنصوص عليهم كذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى] وهذا يعني أن تلك الدواب التي في السموات هي من جنس الدواب الموجودة في الأرض، أي أنها من عالم الإنس وليست من عالم آخر مجهول وهذا ما تؤكده آيات قرآنية وأحاديث نبوية سنأتي إلى ذكرها وبيان معانيها تالياً.

★ ★ ★

وجود الإنس في السموات

مما يؤكد وجود الإنس في السموات قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾. [العنكبوت: ٢٢] جاء في تفسير ابن كثير أي لا يعجزه أحد من أهل سمواته ولا أرضه. وفي القرطبي أي لا يعجزه أهل الأرض في الأرض ولا أهل السماء إن عصوه، وقال في ذلك بعض أهل العربية من أهل البصرة أي: وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء معجزين. وكلها معاني توحي بل وتؤكد وجود مثل هذه الدواب العاقلة القادرة -بحكم وجود إرادة الاختيار لديها- أن تمارس المعصية في السموات. وخاصة أن لفظ ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ في الآية يقتضي هذا المعنى ويشي بوجود القدرة لدى تلك الخلائق على مزاولة المعصية، والاغترار إلى درجة الظن بأنهم يعجزون الله. وهذا الوصف إنما ينطبق على عالم الإنس لأنهم هم المخاطبون في الآية بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾. ومن هنا كانت هذه الآية دليلاً على وجود الإنس في السموات كما هو الحال في هذه الأرض، ثم إليكم آية أخرى من كتاب الله توحي بوجود الإنس في السموات، وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الفرقان: ٦] قال ابن جريج أي يعلم ما يسر أهل الأرض وأهل السماء[1] وعلى هذا يكون المعنى أن هناك إنساً مثلنا في السموات يسرون ويعلنون، لأن كل الآيات التي وردت فيها كلمة السر في القرآن إنما جاءت بحق الإنس دون سائر المخلوقات، مما يؤكد أن المقصود بالسر في قوله ﴿ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هو ما يسره الإنس في السموات. ولعل ما يؤكد ذلك -أيضاً- قوله تعالى في أول آية من الكتاب بعد البسملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جاء في تفسير (العالمين) ما نصه: **«لا شك أنها كلمة فاجأت العرب من ناحيتين على الأقل: ناحية الجمع وناحية تذكير الجمع. فالعرب لم يكونوا يعرفون إلا**

---

(١) جامع البيان للطبري.

عالماً واحداً هو الذي كانوا يعيشيون فيه. والناس إلى اليوم لا يتحدثون إلا عن عالم واحد هو الذي نبصر ونحس ونعيش فيه. فقصر الحمد على رب العوالم شيء فاجأ الناس إذ ذاك ولم يألفه كل الناس إلى اليوم.

والتمس الناس تلك العوالم المتعددة فقالوا: هي عوالم الإنس والجن والملائكة. وقالوا: هي عوالم الحيوان والنبات والجماد. ولكن ليس كل ذلك بموف معنى ذلك اللفظ لفظ (العالمين). إنه جمع مُعرَّف لا جمع منكر. وأنت إذا قلت (العالم) لم تفهم إلا عالماً واحداً هو هذا الشامل لكل ما ترى من أرض وسماء. وإذا أخذنا بحرفية اللفظ في الفهم طبق قاعدتنا الأولى كان عالمنا هذا فرداً من أفراد وعالماً من عوالم مثله فأين هذا المعنى في أي كتاب بأي لسان قبل القرآن.

ثم جاء علم الفلك الحديث بمراقبه ومراصده وتحليلاته الرياضية وغير الرياضية، فبين أن المجموعة الشمسية، التي نحن فيها ومنها، ليست في هذا العالم المجري شيئاً مذكوراً وبيَّن أن هناك عوالم مجرية أخرى مترامية المطارح تعدُّ لا بالمئات ولا بالألوف ولكن بالملايين. لكن العلم الحديث لم يهتد إلى الآن في العوالم المجرية الأخرى إلى أرض كأرضنا وإن اهتدى إلى أن في كل عالم مجري آلافاً مؤلفة وملايين من الشموس. وستجد أكثر الناس يقنع من التطابق القرآني العلمي في هذا اللفظ الكريم بهذا القدر، لكن حرفية المعنى القرآني لا تقنع بهذا، وتؤدي إلى أكثر كثيراً مما نعرف الآن عن إخوته، فيه أرض تدور حول شمس وأمامها. بكل ما في الأرض وما في الشمس من أسرار. فحرفية اللفظ القرآني، وحقيقة الجمع القرآني يقتضيان أن تكون هناك عوالم أخرى فيها أرض تدور حول شمس، أي أنه لا بد حسب حرفية القرآن، أن يكون في ملايين العوالم المجرية الأخرى عوالم ولو قليلة، يتحقق فيها ما هو متحقق لنا في هذا العالم الذي جمعه الله سبحانه في أول آية من كتابه جمع

تذكير[1] ثم إليكم هذا الحديث الشريف الذي يؤكد أيضاً وجود مثل هذه العوالم في الكون. قال عليه السلام «اللهم رب السموات السبع وما أظلت ورب الأرضين وما أقلت... الخ»[2] «فالأرضون وما أقلت» وردت هنا بصيغة الجمع لا المفرد مما يعني أن هناك وظيفة مشتركة لكل الأراضي في الكون وهي حمل المخلوقات التي فيها، أما ما هي هذه المخلوقات وما جنسها؟ فالجواب أننا إذا قلنا حجارة وتراب ومعادن نكون قد أخطأنا لأن هذه المسميات من جنس الأرض بل هي من مكوناتها الأساسية هذا إضافة إلى أن لفظ (أقلت) يقتضي معنى وجود حامل ومحمول، أما الحامل فيتمثل في أجرام الأرضين، وأما المحمول فيجب أن يكون من غير جنسهنَّ، أي يجب أن يكون شيئاً آخر غير مكونات الأرضين، أي مخلوقاً آخر فما هو إذن هذا الشيء أو ذلك المخلوق المختلف عن الأرض؟.

إن آيات الله تجيب على ذلك وتفسر بعضها بعضاً، يقول الله تعالى في هذا الشأن: ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١-٧٢].

هذا إذن هو المخلوق الجديد الذي خلقت الأرض من أجله ووضعت له وجاء مختلفاً عنها نوعياً، نعم إنه بشر من طين أي من طين الأرض ولكنه مميز عن الطين بالنفخة العلوية لقوله تعالى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ فإذا هو مخلوق جديد كل الجدَّة ويختلف عن الطين نوعياً، وبناء عليه يكون الإنسان هو المقصود بقوله عليه السلام: «الأرضين وما أقلت» أو أنه على الأقل داخل في مقصود هذا النص الشريف.

من هنا يتبين أن تعدد العوالم العاقلة في الكون أمر واقع وحقيقي، وليس مجرد تنبؤات أو رجماً بالغيب، وهذا ما قاله غير واحد من العلماء المسلمين ولا سيما المعاصرين منهم، وأقول المعاصرين لأن القرآن يفهم منه أهل كل عصر بقدر ما أوتوا من العلم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا

---

(١) الإسلام في عصر العلم. د. الغمراوي (ص٢٢٣-٢٢٥).

(٢) رواه الترمذي.

﴿لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت ٤٣] أي العلماء. أجل إنه لمن الخطأ الشائع الاستمرار في الاعتقاد بعدم وجود إنس على غير هذه الأرض لأن الدلائل التي تشير إلى وجود مثل هذه المخلوقات في السموات كثيرة بل وأكثر من أن يحصرها هذا الكتاب الصغير.

أما إن أصرَّ أحد على نفي وجود إنس على غير هذه الأرض بدعوى أن الناس كلهم لآدم وآدم عليه السلام من تراب فإن الجواب عليه يكون بأنه إذا كان المقصود بالإنسان آدم عليه السلام وذريته على هذه الأرض، فإن قولاً كهذا قد يكون صحيحاً لأن آدم عليه السلام لم يخلق إلا من طين هذه الأرض، بنص قوله تعالى: ﴿ ۞مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ [طه ٥٥] وفي الحديث الشريف: «الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب»[1] أي من تراب هذه الأرض، وبناء عليه يمكن القول بأن سكان تلك الأراضي لا يمكن أن يكونوا من نسل آدم عليه السلام الذي عاش ومات على هذه الأرض، بل لا بد أن يكون لهم أصل آخر ينتسبون إليه، وهذا الأصل أو الإنسان الأول الذي تفرعت عنه تلك الخلائق يصح تسميته (آدم) على اعتبار أن أصل هذه التسمية مشتق من أديم الأرض أي وجهها، وهي المادة المخلوق منها ذلك الإنسان الأول فسمي مما خُلِق منه، وهذا يكشف لنا معنى قول ابن عباس رضي الله عنه في تفسير الآية ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ قال: «سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم وآدم كآدم وإبراهيم كإبراهيم ونوح كنوح وعيسى كعيسى»[2].

لاحظ أنه قال آدم كآدم ولم يقل آدم وتوقف، بل أضاف أداة التشبيه لكي يدل على أن هناك وجه شبه في صفة أو أكثر بين خلق آدم على هذه الأرض وخلق سميه على بقية الأرضين، ذلك لأن الإنسان هو الإنسان سواء كان في السموات أم في الأرض، فحين يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾

---

(١) رواه أبو داوود والترمذي وحسنه.

(٢) «ابن كثير» الجزء الثالث (ص٣٨٥)، ورواه البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات».

[البلد]. فإن هذا ينطبق على الإنس في السموات أيضاً، ولكن قد لا تكون أعينهم مثل أعيننا مثلاً، فقد يكون شكلها بالطول بدلاً من العرض وهذا أمر جائز إلا أنها تبقى عينان، إذ لا يعقل أن يكون للإنس في السموات أربع عيون مثلاً أو لسانين أو أكثر من شفتين. لأن هذا مخالف لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ﴾ [التين] ولذلك فإنهم يشبهوننا في بعض الصفات ويختلفون عنا في الألوان واللغات وربما في أشكالهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ۝٢٢ ﴾ [الروم].

* * *

وجود الجن في السموات

تشير بعض آيات القرآن إلى ملازمة الجن للإنس في السموات والأرض دليل ذلك من الكتاب قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ [الرحمن]. والأنام هم الجن والإنس، وبما أن الأرض اسم جنس فإن هذا يعني أن ما ينطبق على هذه الأرض من وضعها للأنام قد ينسحب على بقية الأرضين في الكون، وهذا ما أكده الحديث الشريف (رب الأرضين وما أقللن)[1].

لأن الأرضين جمع أرض وهذا يشمل كل الأرضين في الكون بما فيها أرضنا، فإذا أخذنا بمبدأ القياس وطبقناه على موضوعنا، بمعنى أننا إذا قسنا المجهول ممثلاً في باقي الأرضين على المعلوم ممثلاً في أرضنا تكون النتيجة أن في تلك الأرضين لا بد أن تكون حياة شبيهة بحياتنا، أي أن هناك عوالم أخرى من الجن والإنس في السموات.

أما الدليل الثاني على وجود الجن في السموات، فهو كون الشيطان عدواً للإنسان أينما كان، وبما أن الإنسان قد ثبت وجوده في السموات والأرض فإن هذا يعني أن الشيطان لا بد أن يكون ملازماً له في السموات أيضاً، يؤكد ذلك نص الحديث الشريف في الصحيح (عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير)[2]. وإذا كان هذا حالهم مع رسول الله ﷺ وهو رسول وخير الخلق فكيف بمن دونه من الإنس، إن هذا الحديث يدل على ملازمة الجن للإنس في كل مكان، وقد أكد تعالى ذلك من خلال تعبيره عن هذين المخلوقين بلفظ واحد نحو قوله:

---

(١) الترمذي كتاب الدعوات ٩٠.

(٢) صحيح مسلم الجزء الثامن عشر ص١٥٧.

﴿ لِلْأَنَامِ ﴾ في قوله: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ وقوله أيضاً: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾ [الرحمن] مما يعني أن الشيطان قرين للإنسان أينما وجد وهذا ما أكده تعالى في آية أخرى من الكتاب بقوله: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [فصلت: ٢٥]. وقوله كذلك: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزخرف]. وهذا نص عام ينطبق على كل من يعرض عن ذكر الله من الإنس سواء كانوا في السموات أم في الأرض.

أما الدليل الثالث على وجود الجن في السموات فهو قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرحمن]. حيث جاء هذا الخطاب لعموم الجن والإنس في كل مكان، ولما كان تعالى قد ذكر السموات والأرض في الآية كمكان لممارسة إرادة هذين المخلوقين، فإن هذا يعني أن للجن وجوداً في السموات كما لهم وجود في الأرض، لأن كليهما مخلوقان لنفس الغاية وهي عبادة الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾. [الذاريات].

★ ★ ★

للوقوف على حقيقة أهل السماء لا بد من ذكر حقيقة على درجة كبيرة من الأهمية، وهي أن الجن والإنس سواء كانوا في السموات أم في الأرض فإن طبيعتهم واحدة، إذ ليس من المعقول أن يكون الإنس في السموات مخلوقين من نار مثلاً أو أن الجن هناك مخلوقون من ماء، لأن قانون النشأة لكل منهما واحد في كل الكون، فعندما يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾. فإن هذا يعني أن النص يشمل كل دواب السموات والأرض بلا استثناء، وكذا الأمر بالنسبة للجن في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن] فإنه يشمل كل الجن أينما كانوا، لهذا فإن طبيعة الجن والإنس واحدة في كل الكون بصرف النظر عن اختلاف الزمان والمكان، مما يعني أن ما ينطبق على الجن والإنس في هذه الأرض قد ينسحب على إخوانهم في السموات أيضاً، وبناءً عليه يكون الجن والإنس في هذه الأرض بمثابة البوصلة التي تحدد لنا اتجاهات الجن والإنس في السموات وتكشف لنا عن هويتهم الفكرية والعقائدية، ولما كان إنس هذه الأرض معروفين بالمشاهدة فقد لزم الإخبار عمن لا يشاهدون وهم الجن، لأنهم مخلوقات غيبية ولا يمكن معرفتهم إلا بواسطة الوحي، لذلك قال تعالى على لسان بعضهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجن]. وهذا يعني أنهم وإن اختلفوا عنا في أصل النشأة وطبيعة التكوين إلا أنهم مثلنا في تعدد فرقهم ومذاهبهم، ويرجع ذلك -طبعاً- إلى كون الرسالة المنزلة للإنس هي نفسها المنزلة للجن، أي أن الرسالة واحدة للجن والإنس على السواء، وذلك باعتراف الجن أنفسهم بنص قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ [الجن].

وبناءً عليه تكون عقائد أهل السموات شبيهة بعقائد أهل الأرض، أي أن منهم الصالحون ومنهم دون ذلك مصداقاً لقوله تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا

﴿ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ﴾. قال السدي: أي فرقاً شتى، وقال الضحاك: أديان مختلفة، وقال قتادة: أهواء متباينة، وكلها أقوال تشير إلى أن الجن كالإنس فرقهم متعددة ومذاهبهم شتى، وهذا هو حالهم سواء كانوا في السموات أم في الأرض. وإن ما ينطبق على الجن في هذا الشأن يسري على الإنس أيضاً، لأن كليهما لا يفترقان ومكلفان بنص القرآن: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات]. وهذا نص عام يشمل الجن والإنس في كل مكان. ولعل ما يؤكد هذا الرأي أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون] فالطرائق جمع طريقة وهي مذهب الرجل ويقال: القوم طرائق أي على مذاهب شتى، وقيل في معنى قوله سبع طرائق أي سبع سموات بعضها فوق بعض، وقيل لأنها طريق الملائكة، وكلها معان يحتملها النص ومن الجدير بالملاحظة أن كلمة طرائق في القرآن قد وردت مرتين اثنتين فقط مرة في سورة المؤمنين في قوله: ﴿سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾ ومرة في سورة الجن في قوله: ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ﴾. مما قد يفسر أن كلمة ﴿ طَرَآئِقَ ﴾ المنصوص عليها في قوله تعالى: ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾. لها صلة من حيث المعنى بكلمة ﴿طَرَآئِقَ﴾ الواردة في قوله: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ وخاصة لأن سورة المؤمنون قد جاء ترتيبها في القرآن قبل سورة الجن كما أنها سابقة في نزولها لسورة الجن أيضاً مما يؤكد أن القرآن يفسر بعضه بعضا. من هنا كان المعنى الراجح لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾ هو أن الله عز وجل قد خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن وخلق فيهن خلقاً كثيراً وجعلهم طرائق قدداً مثلنا، ولعل ما يؤكد صحة هذا المعنى قوله تعالى في آخر الآية ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾. لأن الخلق هنا هو ما خلق الله من سموات وأرضين ومن فيهن من خلق، والمعنى أن الله سبحانه ليس بغافل عن تلك المخلوقات التي في السموات، فهو الذي خلقهم ومن غير المعقول أن ينساهم أو يغفل عنهم، لأنه هو الحي القيوم وهذا يشبه قوله في آية أخرى من الكتاب ﴿ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴾ [الرحمن]. أي أن أهل السموات والأرضين يسألونه قضاء حوائجهم وهو يستجيب لهم، وهو نفس المعنى تقريباً

لقوله السابق ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾.

مما تقدم يتضح أن في الكون إنساً غيرنا، وأن منهم المؤمن ومنهم الكافر، وأما المؤمنون منهم فقد نزلت بحقهم آيات بينات تؤكد علاقتهم بالله نحو قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾. وقوله أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩﴾ [الرعد: ١٥]. وغيرها كثيرة أما دليل وجود غير المؤمنين والعصاة من الإنس في السموات فهو قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [الشورى: ٥]. والمعنى أي تكاد السموات يتشققن من فوق الأرضين من قول وفعل المشركين الموجودين فيهن، لولا تسبيح الملائكة لله وتمجيدهم إياه واستغفارهم لمن في الأرض، وتسبيح الملائكة هو تنزيه الله عما لا يجوز في وصفه وما لا يليق بجلاله مما يقول به المشركون من أهل الأرضين. ولعل ما يؤكد وجود المشركين في السموات أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس] جاء في القرطبي في تفسير قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ أي يحكم فيهن كما يريد ويفعل فيهم ما يشاء سبحانه، وهذا في رأيي اثبات على وجود من يعقل في السموات لأن لفظ ﴿مَن﴾ للعاقل - أما قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فهو معطوف على من في السموات ومن في الأرض، فيكون المعنى أن في السموات من يشرك بالله ويتبع الظن كما هو الحال في الأرض.

ثم إليكم آية أخرى في الكتاب توحي بتعدد الأهواء لدى الإنس في السموات وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ﴾ [المؤمنون: ٧١]. والحق هو أحد أسماء الله الحسنى، فيكون المعنى أن الله سبحانه لو اتبع أهواء أهل السموات والأرض وهي قطعاً متباينة ومتعارضة لفسد الكون بمن فيه، لأن لفظ ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾ في الآية تشمل أهواء من في السموات ومن في الأرض، فلو قال: **(أهواءكم)** لكان المعنى خاصاً بأهل هذه الأرض

فقط، أما وقد جاء التعبير بلفظ ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾ في الآية فإن هذا يعني بأنه يفيد العموم، أي أهواء من في السموات ومن في الأرضين من الجن والإنس لأن قوله ﴿فِيهِنَّ﴾ في الآية عائد على من في السموات ومن في الأرض مما يعني أن هذه الآية كونية ولا تخص أهل الأرض وحدهم، ومن هذا يتبين أن لدى أهل السموات أهواء مثل أهل الأرض وهذا ما يفسر لنا نص الحديث الشريف (لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار)[1] وفي حديث آخر (إن الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم)[2] وذلك لما يفعلونه من المعاصي ويقترفونه من الآثام، ومن هنا جاءت تسمية الجن والإنس بالثقلين في قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝﴾ [الرحمن] قال جعفر الصادق:- سميا ثقلين لأنهما مثقلان بالذنوب وفي الآية ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ لأنهما فريقان والفريق يمكن أن يقال فيه بأنه جمع كما أورده القرطبي. ومما يؤكد صحة هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝﴾ [الطور]. وأخيراً إليكم هذه الآيات والأحاديث التي يؤكد معناها وجود المشركين في السموات وهي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]. وقوله أيضاً: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] ولما كان الرسول ﷺ قد ذكر بأن الساعة لا تقوم على مؤمن بنص الحديث (إن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير فلا تدع أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته)[3]. وفي حديث آخر (لا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله)[4] فإن هذا يعني أن من سيفزع ويصعق لقيام الساعة من أهل السموات والأرض هم شرار الخلق وذلك بنص الحديث (لا تقوم الساعة إلا على شرار

---

(١) **رواه الترمذي** وحسنه كتاب الديات رقم ٨.

(٢) **رواه أبو داود** كتاب السنة وابن ماجه في المقدمة وأحمد.

(٣) **صحيح** مسلم الجزء الثاني ص١٣٢.

(٤) صحيح مسلم الجزء الثاني ص١٧٨.

الخلق)[1] -مما يؤكد وجود الكفار والمشركين في السموات كما هم موجودون في الأرض لأن الساعة حدث كوني تنفعل له السموات والأرض ومن فيهن ولذلك فإن ما ينطبق على المؤمنين من أهل هذه الأرض لا بد أن ينطبق على المؤمنين في بقية الأرضين، ومن هذا يتبين أن عقائد أهل السموات مختلفة كعقائد أهل الأرض، ولكنها مع ذلك ورغم هذا الاختلاف فإن عقيدة الإيمان لدى أهل السموات والأرض هي واحدة، وهذا ما أكده تعالى في العديد من آياته والتي سيأتي بيانها تحت عنوان وحدة عقيدة الإيمان في الكون.

* * *

(١) صحيح مسلم وابن ماجه كتاب الفتن.

وحدة عقيدة الإيمان في الكون

إن أكبر دليل على وحدة العقيدة في الكون هو وحدانية الخالق عز وجل، إذ لو كان في الكون إلٰهان لتعارضت إرادتهما ولنتج عن ذلك فساد الكون باسره مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]. وقوله تعالى أيضاً: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] لذلك كان لا بد بموجب هذه الوحدانية للخالق أن تكون هناك عقيدة واحدة في كل الكون، وهذا ما أكده تعالى من خلال التركيز على حقيقة الألوهية في الكون بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] وقال أيضاً: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣] والمعنى أي أنه تعالى المعبود في السموات والأرض. وبناءً عليه تكون النتيجة أن عقائد الإيمان لأهل السموات والأرض واحدة، لأنها منبثقة عن إلٰه واحد هو الله تعالى ومما يؤكد ذلك أيضاً ما أوحت به إحدى آيات الكتاب بوجود كعبة في كل سماء ترمز إلى وحدة الاتجاه والعقيدة للمؤمنين في السموات والأرض، وهي قوله تعالى: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [المائدة] جاء في القرطبي جعل بمعنى خلق فقد سميت الكعبة كعبة لنتوئها وبروزها فكل ناتيء بارز كعب، ومنه كعب القدم وكعوب القناة وكعب ثدي المرأة إذا ظهر في صدرها (والبيت) سمي بذلك لأنه ذو سقف واحد، وهي صفة البيتية وإن لم يكن بها ساكن وأنا أرجح بأنها ربما سميت بيتاً لأن البيت مأوى الإنسان ومكان راحته واستقراره، وهذا ما ينطبق على الكعبة إذ جعلها الله مكاناً آمناً وملجأ لكل خائف مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] **وجاء في تفسير قوله -تعالى-: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى أن الله تعالى جعل هذه الأمور قياماً، والمعنى فعل الله ذلك لتعلموا أن الله يعلم تفاصيل أمور**

السموات والأرض»[1] فيكون المعنى بناءً عليه هو أن الله تعالى قد خلق في السموات مثل هذه الأمور، لأن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معناه أنه تعالى قد جعل هذه الأمور أمامنا لكي نعرف حين يكشف لنا مستقبلاً عن وجود مثلها في السموات، أن الصانع والخالق لهذه وتلك هو واحد أي أنه الله تعالى، لأن وحدة الصنعة في مكانين مختلفين ووجود نظام متشابه لخلقين متباعدين يدل على وحدانية الخالق والصانع، ولذلك قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] أي أنه تعالى هو المعبود والمنفرد بالتدبير في السموات والأرض، وبناءً عليه يكون معنى قوله تعالى ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ . هو شبيه بقول من يقول للناس بنيت لكم هذه البناية المميزة في هذا المكان لتقيموا فيها مناسباتكم، ذلك لتعرفوا بأنني أعلم ماذا يوجد في البلد المجاور، ولما كان هذا القول فيه إشارة ولو ضمنية بأن في البلد المجاور يوجد بناية مشابهة لهذه البناية المميزة والمشاهدة من قبل الناس المخاطبين، ويعني أيضاً أن تلك البناية التي في ذلك البلد المجاور قد أقيمت قبل البناية التي يشاهدها الناس لأنه جعلها الأصل في التشبيه، بمعنى أنه جعل هذه البناية شبيهة بتلك وليس العكس، فإن معنى الآية كذلك تماماً، أي أن الله تعالى قد جعل الكعبة البيت الحرام مطابقة في هيئتها ووظيفتها لهيئة الكعبة التي في السموات، مما يعني أن الكعبة التي في السموات أسبق في الخلق والوجود من كعبة هذه الأرض، ولما كان تعالى قد ذكر في الآية ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بصيغة الجمع فإن هذا يدل على وجود أكثر من كعبة في السموات، أي أن في كل أرض في السموات توجد كعبة، وهذا ما أكده تفسير ابن عباس -رضي الله عنهما- لقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝﴾ [الطور]. قال (لله في السموات والأرض خمسة عشر بيتاً سبعة في السموات وسبعة في الأرضين مثل الكعبة وكلها مقابلة للكعبة)[2]. وعنه أيضاً أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى

(١) تفسير القرطبي المجلد السادس ص٣٢٦.

(٢) القرطبي الجزء ١٧ ص٦٠.

﴿كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]. قال: (لله في كل سماء بيت يحج إليه وتطوف به الملائكة)[١] وابن عباس رضي الله عنه معذور في حصره عدد البيوت في خمسة عشر بيتاً، لأن تفسيره للسموات السبع كان محصوراً في سبع سموات وسبعة أجرام أرضية فقط لا على أن هذه السموات سبع مجموعات من السموات والأرضين، ولو فسرها على هذا النحو لامتنع عن حصر البيت في خمسة عشر فقط لأن كل أرض لا بد أن يكون فيها بيت حرام مثل الكعبة، وبذلك يكون في الكون ملايين من مثل البيت الحرام وليس سبعة فقط، أما قوله ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ فإنه يعني أن الإنسان هو محور الآية ومدار الاهتمام، لأنه تعالى قد جعل له فسحة أمان في الزمان والمكان بنص قوله تعالى: ﴿۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ قال العلماء: فلما كانت الكعبة موضعاً مخصوصاً لا يدركه كل مظلوم ولا يناله كل خائف، جعل الله الشهر الحرام ملجأ آخر وهي اسم جنس، والمراد الأشهر الحرم بإجماع من العرب[٢].

ولما كان -تعالى- قد ذكر هذه الأمور كلها قبل قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فإن هذا يعني أنه تعالى كان قد خلق مثل ما على الأرض من الخلق في السموات وجعل لهم كعبة وشهر حرام مثلما هو في الأرض، كما أن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا﴾ يعني أيضاً أن الإنسان في المستقبل سيتكشف له حقيقة وجود مثل هذه المخلوقات المؤمنة في السموات، لأن العلم في قوله ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ هو صفة انكشاف ومعرفة بعد جهل، ومن هنا قال تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق] وبناءً عليه تكون هذه الآية برهاناً على وجود حضارات أخرى في السماء من عالم الإنس تدين بالإسلام كما ندين نحن، وإن لهم رسلاً وأنبياء وشرائع مختلفة تناسب طبيعتهم وتوافق خلقتهم وهذا ما أريد بيانه تحت عنوان تعدد الرسل في الكون.

---

(١) القرطبي جـ١٥ ص٣٤٥.

(٢) تفسير القرطبي المجلد السادس ص٣٢٦.



تعدد الرسل في الكون

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾. [الطلاق: ١٢] قال ابن عباس في تفسير هذه الآية أي سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم وآدم كآدم وإبراهيم كإبراهيم ونوح كنوح وعيسى كعيسى(١) وقال تعالى أيضاً ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم] ولكي نعرف ما هي العلاقة بين هذه الآية وموضوع البحث لا بد من ذكر حقيقة هامة وهي أن مقدمة هذه الآية الممثلة في قوله ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لم ترد في القرآن سوى مرتين الأولى في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ ﴾ [الشورى: ٢٩]. والثانية في هذه الآية مما يؤكد وجود صلة وارتباط في المعنى بين الآيتين، لأن مقدمتها هي واحدة في النص والمعنى مما يستوجب أن يكون موضوع البحث في الآيتين واحد أيضاً، وإلا ما علاقة ذكر السموات باختلاف ألواننا وألسنتنا إذا لم يكن هناك ارتباط بين المقدمة والنتيجة، أو بين أول الآية وآخرها، أجل إن وحدة المقدمة للآيتين تؤكد أن التكملة فيهما تتعلق بموضوع واحد، وهو وجود شيء يثبت وحدانية الله في الكون، لأن قوله تعالى في الآيتين ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ معناه من دلائل وجود الله ووحدانيته أن خلق السموات والأرض، وهنا تأتي التكملة في الآيتين مختلفة في الألفاظ ولكنها متكاملة في المعنى، لأننا لو أخذنا ما هو مشترك في الآيتين وهو مقدمتهما المتمثلة في قوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وجعلناها مقدمة واحدة ووحيدة للآيتين أي دون تكرار ثم أوردنا بعد ذلك تكملة الآيتين لوجدنا أن اختلاف الألسن والألوان يكون عائداً على دواب السموات والأرض، لأن النص حين يُحذف المتكرر منه يجيء على هذا النحو -ومن آياته خلق السمٰوات والأرض وما بث فيهما من دابة

---

(١) رواه البيهقي في كتاب «الصفات والأسماء».

مختلفة ألسنتها وألوانها وهو على جمعهم إذا يشاء قدير إن في ذلك لآيات للعالمين- وهذا يعني أن قوله تعالى في سورة الروم ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ قد جاء ليوضح ويكمل معنى قوله في سورة الشورى ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أي أن ما ينطبق على دواب هذه الأرض من اختلاف الألسن والألوان ينسحب على بقية الدواب في السموات أيضاً، لأن هذه الدواب وإن اختلفت في أشكالها وألسنتها وألوانها فإنها من جنس واحد، ولعل ما يؤكد ذلك أيضاً استعماله تعالى لفظ الدابة مرة واحدة بحق جنسين مختلفين وهما السموات والأرض، ولو استعملها مرتين بدلاً من مرة واحدة، مرة متعلقة بالسماء والأخرى بالأرض، لكان المعنى أن دابة الأرض تختلف عن دابة السماء، ولكن لما كان تعالى قد عبر عن هذه الدواب في السموات والأرض بلفظ واحد في قوله: ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ فإن هذا يدل على أن هذه الدواب من طينة واحدة لأن اللفظ حين يأتي منفرداً بحق جنسين مختلفين مثل قوله ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ فإن معناه يكون واحداً الأمر الذي يؤكد أن هذه الدواب من جنس واحد يقيناً أي أنهم من عالم الإنس، ولما كان الأمر كذلك فإن هذا يعني أن اختلاف الألسن والألوان يشمل كل الدواب في السموات والأرض، وبناءً عليه يكون هناك شرائع مختلفة وتعدد رسل في السموات كما هو الحال في الأرض لأن اختلاف الألوان يدل على اختلاف الأمكنة وتغير المناخ، كما أن اختلاف الألسن يدل على اختلاف الأجناس والأقوام مما يقتضي اختلاف الشرائع وتعدد الرسل في السموات أيضاً، لأنه ما من نبي إلا وأرسل بلسان قومه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]. وقوله أيضاً: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧] ثم قوله: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ [يونس: ٤٧] وقوله كذلك: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤] ولعل ما يقوي هذا التفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ [فصلت: ١٢]. اي أنه تعالى كان قد أوحى من الشرائع في كل سماء ما يناسب أهلها وسكانها ولذلك قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: **إن لله في كل سماء بيتاً يُحج إليه وتطوف به الملائكة.** من هنا

كان قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٢] يدل على تعدد الأقوام في السموات والأرض، الأمر الذي يقتضي تعدد الرسل والأنبياء في الكون أيضاً، وهذه الحقائق التي تقتضيها ألفاظ الآية لا يستجليها إلا العلماء، ولذلك قال تعالى في آخر الآية ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ بكسر اللام أي للعلماء.

★ ★ ★

ختم الرسالات في الكون

مما يؤكد ختم الرسالات في السماء قبل ختمها في الأرض الأدلة الآتية:

١- إن قوله تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [المائدة: ٩٧]. يدل على أن كعبة السماء أسبق في الخلق والوجود من كعبة الأرض، لأنه تعالى قد جعلها موضع تشبيه أي أنه جعل هذه الكعبة تشبه تلك الكعبة التي في السموات مما يعني أن كعبة السماء أسبق في الوجود من كعبة الأرض، وبناءً عليه يكون أهل السماء مخلوقين قبل أهل الأرض، وبهذا يكون رسولنا ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ليس فقط في هذه الأرض وإنما في الكون كله.

٢- إن كون رسولنا عليه السلام علامة للساعة بنص قوله: (بعثت أنا والساعة كهاتين) وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى[1] يدل على أنه آخر الأنبياء في السموات والأرض، يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وفي الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ قال: إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنه من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلاّ وضعت هذه اللبنة، قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)[2].

٣- إن كون الدابة ستخرج من الأرض المجاورة وهذا ما سيأتي بيانه في باب خروج الدابة يدل على أن مخلوقات السماء أسبق منا في التطور والعلوم والتكنولوجيا مما يؤكد أنهم مخلوقون قبلنا بزمن قد يكون طويلاً وهذا أمر يقتضي ختم الرسالات في السماء قبل ختمها في الأرض.

---

(١) صحيح مسلم الجزء الأخير ص٨٩.

(٢) صحيح مسلم الجزء الخامس عشر ص٥١.



أشراط الساعة الكبرى

يؤكد القرآن الكريم أن للساعة أشراط وعلامات قال تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ (١٨) محمد. وهذه العلامات منها الصغرى والكبرى، أما الصغرى فقد بدأت بختم الرسالات في الكون قال عليه السلام: «بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى» رواه البخاري. ثم توالت هذه العلامات تحققاً كما أنبأ عنها الرسول ﷺ وما يزال بعضها يتحقق إلى الآن وهي كثيرة لمن أراد أن يستقصيها. . أما الأشراط الكبرى فهي محدودة وتنقسم إلى قسمين الأول: تقبل التوبة معه نحو ظهور المهدي والمسيح الدجال ونزول سيدنا عيسى عليه السلام ويأجوج ومأجوج وخروج الدابة،والثاني لا تقبل معه توبة مثل طلوع الشمس من مغربها والدخان والريح الطيبة والنفخ في الصور وغيرها. وما يهمنا هنا هو خروج الدابة لأنها مدار البحث ومحل الاهتمام بل تكاد تكون العلامة الأهم بالنسبة للإنسان كونها تمثل نهاية المطاف في رحلة التكليف وحمل الأمانة في الأرض حيث تختم بعدها الأعمال ويغلق باب التوبة. أجل إن خروج الدابة أمر عظيم وعجيب لا سيما إذا عرفنا أنها ستخرج من أرض غير أرضنا ومن مجموعة شمسية أخرى تبعد عنا عشرات أو مئات السنوات الضوئية، لا شك أن ذلك أمر غريب ويدعو إلى الدهشة ولكنه مع ذلك يبقى ممكناً وقد يتحقق في حينه إذا يشاء الله مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى].

وهذا ما أريد بيانه وإثباته بتوفيق الله وحمده في الصفحات التالية:



خروج دابة من الأرض المجاورة

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [النمل]. وفي الحديث الصحيح عن عبدالله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً»[1].

مما تقدم يتضح أن القرآن والسنة ينصان على حتمية خروج دابة من الأرض تكلم الناس ولم يحدد تعالى بنص واضح لا يحتمل التأويل من أي أرض ستخرج الدابة حيث يوجد أراض متعددة في الكون فقد تخرج من هذه الأرض أو من الأرض المجاورة. وكلاهما يدخل في معنى قوله أخرجنا ويسمى خروجاً، غير أن خروج الدابة من الأرض المجاورة أبلغ في الدلالة، لأن الخروج في حد ذاته آية وكلام الدابة مع الناس آية ثانية، ومن مقتضى الآية أن تكون غريبة الشأن سواء من ناحية موضع الإخراج أو من ناحية الهيئة واللون، الأمر الذي يوضح بأنها ستكون مختلفة عن دواب هذه الأرض، وأن خروجها كذلك سيكون مختلفاً لأن قوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ يعني أن هناك شيئين مختلفين الأول: الشيء المُخْرَج. والثاني: الشيء المخرج إليه. أما الشيء المخرج فهو الدابة وقد نصت الآية على أنها دابة عاقلة بدليل قوله ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ والكلام لمن يعقل من الدواب وأما الشيء المخرج إليه فهم سكان هذه الأرض بدليل قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ﴿لَهُمْ﴾ ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ وهي ألفاظ تحمل معنى الدواب العاقلة في هذه الأرض لأننا نحن المخاطبون في الآية لا غيرنا، فيكون المعنى بناءً عليه أن تلك الدابة العاقلة سوف تخرج من الأرض لتكلم الدواب العاقلة في هذه الأرض، وهذا المعنى فيه إيحاء بأن الخروج سيكون من أرض غير أرضنا، وأن هذه

(١) صحيح مسلم، الجزء الأخير ص٧٨.

الدابة تختلف عن دواب هذه الأرض، صحيح أنها دابة عاقلة وتكلم عقلاء مثلها ولكنهم ليسوا سواء، إنهم صنفان مختلفان من الدواب العاقلة وان اشتركوا في بعض الصفات، ولعل ما يؤكد ذلك هو كون تلك الدابة آية وعلامة كبرى للساعة مما يعني أنها ستكون مختلفة يقيناً عن دواب هذه الأرض، أي أنها ليست واحدة منها، وهذا ما يرجح احتمال كونها من دواب الأرض الثانية لأن قوله ﴿أَخْرَجْنَا﴾ يحمل معنى إبراز الشيء وتحريكه من موضعه وقد جاء في المعجم الوسيط أن معنى أخرج هو أبرز الشيء من مقره وفصله من مكانه. وبما أن المكان محدد في الآية بالأرض لقوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فإن هذا يعني ان احتمال اخراجها من الأرض المجاورة هو أمر راجح، إذ ليس في الدين أو اللغة ما يمنع من ذلك، ولعل ما يقوي هذا التفسير أيضاً كون الأرض اسم جنس ويطلق على كل كوكب عليه حياة، ولما كانت الحياة من غير هواء مستحيلة، فإن هذا يعني أن الغلاف الجوي للأرض جزء لا يتجزأ منها، بمعنى أن قطر الأرض لا يقف عند اليابسة أو البحار فحسب، وإنما يمتد إلى آخر الغلاف الجوي، يؤكد ذلك نص الحديث الشريف روى الترمذي (عن أبي هريرة قال: بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب؛ فقال نبي الله ﷺ هل تدرون ما هذا؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: هذا العنان هذه روايا الأرض يسوقه الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه -قال-: هل تدرون ما فوقكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: فإنها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف -ثم قال-: هل تدرون كم بينكم وبينها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: بينكم وبينها خمسمائة عام -ثم قال-: هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: سماءين بعد ما بينهما خمسمائة سنة؟ ثم قال كذلك حتى عد سبع سموات ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض... الخ)[1] لاحظ في هذا الحديث أنه عليه السلام حين ذكر العنان قال لأصحابه: «هل تدرون ما هذا؟ ولم يقل لهم: هل تدرون ما فوقكم؟» كما

(١) رواه الترمذي كتاب الجن ٨.

في باقي الحديث علماً أن العنان كان فوق رؤوسهم وقد أجاب عليه السلام على هذا السؤال بقوله: «هذا العنان هذه روايا الأرض» ولم يرد في الحديث ذكر للمسافة التي تفصل بين العنان وبينهم لأن العنان أو السحاب تابع في الواقع للأرض وليس شيئاً منفصلاً عنها، لذلك جاء التعبير عنه بلفظ (هذا) ليدل على أن المسافة بيننا وبينه قريبة، أي أنها مثل أي مسافة تكون بين شيئين اثنين موجودين في الأرض ذاتها ويبعدان عن بعضهما نفس البعد، ومما يؤكد صحة هذا التفسير قوله عليه السلام بعد ذلك لأصحابه حين سألهم عن السماء «هل تدرون ما فوقكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؛ قال: فإنها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف» فهنا قال الرسول عليه السلام حين عنى السماء: (ما فوقكم)؟ ولم يقل ما هذا؟ لأن السماء ليست كالسحاب تابعاً للأرض وإنما هي شيء مختلف عنها، فالسماء غير الأرض. من هنا قال: ما فوقكم؟ ولم يقل ما فوق العنان؟ لأنه عليه السلام أراد بذلك أن يكشف لنا حقيقة هي أننا والعنان موجودون في مكان واحد هو الأرض. وبناءً عليه يكون الإنسان موجوداً في الأرض لا على الأرض. وهذا ما أشار إليه -سبحانه وتعالى- من خلال بعض آيات الكتاب الكريم حيث قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]. وقال: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. وقال كذلك: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [لقمان: ١٠] وقال أيضاً ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ [الشورى: ٢٩]. إلى آخر هذه الآيات مما يعني أننا نعيش في الأرض لا على الأرض تماماً كما تعيش السمكة في البحر لا على البحر، من هنا يكون معنى قوله تعالى: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي أنه **سيخرجها من أقطارها، وما دام القطر قد تحدد نهايته بانتهاء الغلاف الجوي فإن قوله تعالى: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ يعني أنه سيخرجها من أقطار الأرض أي خارج الغلاف الجوي للأرض، وهذا يعني أن تلك الدابة لن تخرج من أقطار هذه الأرض، لأنها إن خرجت منها سيكون محلها السماء وليس الأرض، وعندئذ سيتعذر على الناس مشاهدتها وسماع أقوالها الأمر الذي يتعارض مع نص قوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ كما يتعارض أيضاً مع نص الحديث الشريف الذي يفيد مشاهدتها عن قرب، لأن الدابة مبعوثة لأهل هذه الأرض بنص قوله**

تعالى: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ﴾. مما يؤكد أن الخروج سيكون من أرض غير أرضنا أي أنها ستكون من سكان الأرض المجاورة فهم ليسوا مثلنا بالتأكيد ويختلفون عنا في أشكالهم وربما في ألوانهم وأحجامهم ولكن في النتيجة هم دواب عاقلة ولأنهم عقلاء فلا بد أن يكونوا من عالم الإنس، لأن كل دابة عاقلة هي من الإنس لوجود العقل لديها وهو مناط التكليف، وفي هذا قال ابن عمر رضي الله عنه حين سئل عن الدابة (أنها على خلقة الآدميين) وفي رواية عن ابن عباس «إن لها وجهاً كوجه إنسان»[1] وحكى الماوردي عن محمد بن كعب عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن الدابة فقال: (أما والله إنها ليست بدابة لها ذنب ولكن لها لحية) قال الماوردي وفي هذا القول منه إشارة إلى أنها من الإنس وإن لم يصرح به. فيكون المعنى بناءً عليه أن تلك الدابة من الإنس حقيقة ولكنها ليست من إنس هذه الأرض وإنما من أنس الأرض المجاورة، ذلك لأن هيئة دواب هذه الأرض معروفة لدى بعضها البعض مما لا يدع مجالاً إلى الدهشة والاستغراب حين مشاهدتها أو سماع أقوالها، بينما لون وهيئة تلك الدواب من سكان الأرض المجاورة ما زالت مجهولة وغريبة عنا مما يرجح هذا الاحتمال ويؤكد بأن هذا التفسير إلى معنى الآية أقرب، يؤيده كون الدابة اسم جنس ومسبوقه بالتنوين التفخيمي الذي يدل على غرابة شأنها وخروج أوصافها عن المألوف، ومما يؤكد ذلك أيضاً قوله تعالى في آية أخرى ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝﴾ [السجدة] لأن معنى يدبر الأمر هو يصرف الأمر أي أنه يُنَفِّذُ قضاءه وقدره على شيء ما، لأن الأمر في اللغة معناه الشيء، أما لفظ ﴿يُدَبِّرُ﴾ في الآية فإنه يحمل معنى التريث والتراخي لأنه فعل مضارع يفيد الاستمرار أي أنه لا يفيد الفورية في التنفيذ، والفاعل هنا ضمير مستتر تقديره «هو» العائد إلى لفظ الجلالة الله، والمفعول به هو ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ فيكون المعنى أن الله سبحانه ينفذ قضاءه وقدره على شيء ما فينزله على مهل من مكانه ومقره في السماء إلى هٰذه الأرض لقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ لأن الحرفين من وإلى يفيدان التحديد المكاني للشيء،

---

(١) عن روح المعاني الجزء العشرون ص٢٥.

أما قوله: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ فيعني أن الأمر الذي سينزل إلى الأرض سوف يرجع ثانية إلى السماء لأن الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ عائد على السماء كذا جاء في القرطبي وبعض التفاسير، أما إن قيل أن الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ عائد على الله فالمعنى أن الأمر سوف يعود إلى المكان الذي أمر الله تعالى أن يعرج إليه، وهذا كقول إبراهيم عليه السلام ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات]. أراد أرض فلسطين، وقال تعالى ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] -أي إلى المدينة المنورة، فالمعنى إذن واحد في الحالتين وهو أن الأمر سوف يرجع ثانية إلى المكان الذي أتى منه، وسوف تستغرق هذه الرحلة من السماء إلى الأرض جيئة وإياباً مدة من الزمن قدرها ألف سنة من سنواتنا الأرضية لقوله تعالى ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] لأن اليوم في اللغة معناه مدة من الزمن وليس يوم وليلة، فيكون نزوله إلى الأرض في خمسمائة سنة وعروجه منها في خمسمائة سنة أخرى مما يعني أن تلك النقطة التي سينطلق منها ذلك الشيء المجهول تكون بعيدة عنا مسيرة خمسمائة عام. وقد ثبت في الحديث الشريف أن تلك النقطة هي الأرض المجاورة لقوله عليه السلام (بين الأرض والتي تليها مسيرة خمسمائة عام)[1] ومن هنا يتبين أن تلك الدابة سوف تخرج إلينا من الأرض الثانية أي أنها ستنزل إلينا من أعلى لأن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ يتضمن وصفاً لطريقة الرجوع وهي الصعود إلى أعلى، لأن يعرج معناها يصعد والصعود يقابله هبوط، مما يعني أن تلك الدابة سوف تهبط إلى هذه الأرض هبوطاً، وهذا يوحي بأن تلك الدابة أو الشيء المراد تنزيله إلى الأرض سوف يهبط إلينا بواسطة شيء مادي وقد يكون هذا الشيء سفينة فضاء متطورة، لأن انتقال هذا الشيء من مكانه في السماء إلى الأرض لا يمكن أن يتم بطريقة الدب على الأرض أي سيراً على الأقدام، لأنه ليس هناك أرض بين هذه الأرض والتي تليها حتى يتحقق المشي أو الدب. لذلك فإن انتقال هذا الشيء من السماء إلى الأرض لا بد أن يتم عبر وسيلة نقل متطورة تخضع في حركتها لقانون الله في الكون، لأن لفظ ﴿يُدَبِّرُ﴾ في الآية يوحي معناه بتنفيذ الأمر على

---

(١) الترمذي كتاب الجن ٨.

مهل أي بالتدرج وليس فوراً، مما يعني أن هذا الأمر سيتم إنفاذه وفق علل وأسباب جعلية وليس عن طريق توجه الإرادة الإلهية مباشرة كأن يقول له مثلاً كن فيكون، مثلما فعل بالنار التي ألقي فيها سيدنا إبراهيم عليه السلام إذ قال لها الله: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فكانت على الفور دون أن يستغرق ذلك أدنى زمن، يؤكد ذلك المدة التي يستغرقها الأمر في رحلته إلى الأرض جيئة وإياباً، وهي ألف سنة أرضية مما يعني أن ذلك الشيء سوف يكون مخلوقاً وخاضعاً في حركته لمجمل قوانين الزمان والمكان في الكون، شأنه في ذلك شأن هذه المخلوقات التي في الأرض. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن ذلك الأمر قريب منا في التكوين، إذ يشبه دواب هذه الأرض في صفة أو أكثر ولكنه ليس واحداً منها، لأن خروجه إلينا آية، ومن مقتضى الآية أن يكون هذا الأمر غريباً وغير مألوف لمن هو مرسل إليهم، لذلك لا بد أن تكون تلك الدابة مختلفة عن دواب هذه الأرض لأنها ليست واحدة منها وإنما هي من دواب الأرض المجاورة. ولعل ما يدعم ذلك أيضاً هو قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ في آخر الآية حيث يوحي هذا النص بوجود دواب عاقلة أخرى في الكون تعد غير ما نعد نحن أي لهم زمن يختلف عن زمننا لأن قوله: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ يفيد نسبية الزمن وكأنه تعالى يريد بذلك أن يقول لنا بأن زمن ذلك الشيء الذي سينزل إلى الأرض يختلف عن زمننا نحن، فقد تكون الألف سنة بالنسبة له أقل أو أكثر فالله وحده أعلم بذلك، ولكن المهم أن نعلم أن زمننا غير زمنهم وأن الزمن في الكون ليس واحداً بالنسبة للمخلوقات. وإلى هنا نخلص إلى نتيجة بأن تلك الدابة المراد إخراجها للناس سوف تخرج من الأرض الثانية في السماء لقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ وسوف تستغرق في رحلتها تلك مدة خمسمائة عام مصداقاً لقوله عليه السلام (بين الأرض والتي تليها مسيرة خمسمائة عام) فيكون المعنى بناءً عليه هو أن تلك الدابة سوف تهبط إلى هذه الأرض بواسطة وسيلة نقل متطورة، حيث أن لفظ ﴿يَعْرُجُ﴾ في الآية معناه يصعد والصعود يكون بعد وصول الدابة إلى الأرض فيكون الصعود إذن من هذه الأرض، وحين يكون الصعود من الأرض إلى أعلى فإنه يعني الخروج من أقطار الأرض، مما يؤكد أن ذلك سيتم بواسطة وسيلة

نقل متطورة لأنه لا يمكن الصعود إلى السماء دون معرفة قانون النفاذ من أقطار الأرض ثم وجود مركبة فضائية قادرة على النفاذ، وهذا ما أشار إليه تعالى في سورة الرحمن حيث قال: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرحمن] فالسلطان اذن هو تعبير عن أداة النفاذ من أقطار الأرض، لأنها حصيلة علم العلماء بقوانين الطبيعة والكون، إنها نتاج تفاعل الإرادة والقدرة والعلم على حد سواء. فهي إذن لا تعني العلم وحده أو الإرادة دون العلم وإنما تعني الأثنين معاً، وهذا أيضاً ما أوحى به لفظ ﴿ ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ في الآية حيث يحمل معنى الإرادة وتكرار المحاولة ويؤكد أن الإرادة والقدرة إن لم تقرنا بالعلم فلن يتحقق النفاذ، ولذلك قال تعالى: ﴿ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾. فالسلطان إذن هو وسيلة الإنسان في النفاذ من أقطار الأرض، وبما أن هذه الوسيلة هي وسيلة النقل المتطورة فإن هذا يعني أن السلطان هو سفينة الفضاء المأهولة، وأقول المأهولة لأن المركبة وحدها دون وجود الإنسان فيها لا تسمى سلطاناً وإنما تسمى مركبة أو سفينة فضاء فحسب، ومن هنا يكون لفظ ﴿ بِسُلْطَٰنٍ ﴾ في الآية هو كل مركبة تحمل إحدى الدواب العاقلة إلى الفضاء الخارجي، ولمّا كان خطابه تعالى عاماً أي لكل الإنس والجن في السموات والأرض فإن هذا يعني، أن هذه الآية شاملة للدواب العاقلة في السموات أيضاً، لأن كل دابة عاقلة هي من الإنس مما يعني أن قانون النفاذ في الكون لا بد أن يكون واحداً لكل الدواب، أي أن الإنسان سواء كان في هذه الأرض أم في الأرض المجاورة فإنه لا يستطيع الخروج من أقطار أرضه إلا بسلطان، أما إن سأل سائل وهل الجن لا يستطيع أن ينفذ من أقطار الأرض إلا بسلطان أو مركبة؟ فالجواب هو نعم لأن النص عام ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ فالسلطان إذن هو وسيلة النفاذ الوحيدة للجن والإنس على السواء، ولكن قد يختلف سلطان الجن عن سلطان الإنس لأن الجن مخلوقات غيبية مما يرجح أن يكون سلطانهم غيبياً مثلهم، أي أنه غير مشاهد بالنسبة لنا، أما سلطان الإنس فهو معلوم ويتمثل في مراكب فضائية ذات ثلاثة أبعاد، ولكن حتى هذه المراكب قد تختلف في صناعتها وتطورها من مكان إلى آخر تبعاً لتطور وعلم الدواب العاقلة في

الأرضين، فنحن مثلاً مراكبنا مصنوعة من بعض عناصر هذه الأرض بينما المركبة التي ستصل إلينا من الأرض المجاورة، قد تكون مصنوعة من معادن أخرى غير موجودة في أرضنا أو ربما تكون مصنوعة من الضوء مثلاً، فالله وحده أعلم بذلك لكن المهم معرفته هو أن الإنس والجن لن يستطيعا النفاذ من أقطار السموات والأرض إلا بسلطان وأن نفاذهما سيبقى محدوداً، أما قوله تعالى على لسان بعض الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝﴾ [الجن] فإنه لا ينفي احتمال أن يكون الجن قد توصلوا إلى اكتشاف قانون ووسيلة النفاذ قبل البعثة المحمدية، خاصة وأنهم مخلوقون قبلنا بزمن طويل مما يعني أنهم أسبق منا في العلم وأكثر تطوراً، يؤكد ذلك قوله تعالى على لسان بعضهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أي أنهم كانوا يصعدون إلى السماء ولم يمنعوا من ذلك إلا بعد البعثة، وأنا أرجح أن هذا المنع مؤقتاً بدوام نزول الوحي، لأنه ليس هناك نص في الكتاب أو السنة يؤكد دوام هذا المنع بعد ختم الرسالة سوى أقوال بعض المفسرين الذين لا يرقى كلامهم إلى مستوى اليقين، وقد جاء عن ابن كثير قوله في حكمة منعهم (يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله ﷺ وأنزل عليه القرآن وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً وحفظت من سائر أرجائها وطردت الشياطين من مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق، وهذا من لطف الله تعالى بخلقه ورحمته بعباده وحفظه لكتابه العزيز)[1] وهذا يعني أن الجن لو كان هدفهم غير التسمع لما منعوا من الصعود إلى السماء، لأن الحكمة من منعهم هو حفظ الرسالة الخاتمة فقط، ولما كانت الرسالة قد ختمت وانتهى أمرها، فأرى سقوط المبرر وانتهاء المنع، ولكن لنفرض أنه استمر حتى بعد انقطاع الوحي فإنه سيبقى محصوراً في فئة مخصوصة من الجن هم الشياطين، لأن الجن منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ومن غير المتوقع أن تنطبق عليهم نفس القاعدة، لأن الله تعالى يقول في هذا الشأن

---

(١) تفسير ابن كثير -المجلد الرابع- ص٤٥٨.

﴿ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الملك: ٥] ولم يقل للجن على العموم، كما أن هناك احتمالاً أن يكون الجن قبل البعثة لم ينفذوا من أقطار الأرض وإنما كانوا يصعدون إلى الطبقات العليا في جو الأرض، لأن الغلاف الجوي للأرض يسمى سماءً وقد تقدم بيانه. ولعل ما يقوي هذا الاحتمال كون الأرض وضعها الله للأنام، والأنام هم الجن والإنس مما يفسر أن الأرض هي مستقر للجن والإنس على السواء، وإن استراق السمع لم يكن يتعدى الطبقات العليا لجو الأرض والله أعلم، ولكن لنفرض أن الجن قد نفذوا من أقطار الأرض حقيقة فهل ينفذون من أقطار السموات دون الأخذ بالسلطان؟ إن هذا مستحيل لذلك فإن ما ينطبق على الإنس في هذا المجال يسري على الجن أيضاً مع فارق في طبيعة كل من هذين الخلقين، وما يترتب على هذا الاختلاف من اختلاف في السلطان كذلك. ومع هذا وبالرغم من كل ما تقدم فإن الجن ليسوا موضوع بحثنا لأنهم من عالم الغيب ولا يعلم الغيب إلا الله، وما يهمنا هو عالم الإنس لأنهم مدار البحث ومحل الاهتمام، وهؤلاء لن يستطيعوا النفاذ من أقطار أرضهم إلا بسلطان، أي إلا بوسيلة نقل قادرة على نقلهم خارج نطاق الأرض. ومن هذا يتبين أن تلك الدابة التي ستنزل إلى الأرض وتكلم الناس سوف تنزل بسلطان، أي بواسطة مركبة فضائية متطورة وهذا ما أشار إليه سبحانه في سورة الروم حيث قال: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم] فالسلطان إذن ينزله الله تعالى من السماء لأن النزول لا يكون إلا من أعلى وهذا هو معنى قوله في سورة السجدة ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ فيكون لفظ ﴿سُلْطَٰنًا﴾ في هذه الآية تفسير لقوله ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ في سورة السجدة. ويكون قوله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في سورة الروم تفسير لقوله: ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ في سورة السجدة لأن لفظ: ﴿عَلَيْهِمْ ﴾ مقصود به أهل هذه الأرض وهو نفس المدلول لقوله: ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ في آية السجدة مما يعني أن هذه الآية في سورة الروم هي تفسير وتفصيل لما أجملته آية سورة السجدة، ولعل تنزيل هذه السورة بعد سورة السجدة يؤكد هذا المعنى، لأن العلم اللاحق هو تفسير للعلم السابق، وبناءً عليه يكون المعنى في الآيتين واحداً وهو أنه تعالى سوف يُنزل إلينا من الأرض الثانية في السماء مركبة فضائية، تقل إحدى الدواب العاقلة لتكلم الناس في هذه الأرض وتحاججهم

لأن قوله: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ يشير إلى هذا المعنى ويؤكد بأن الذي سيتكلم هو من العقلاء لأن لفظ ﴿ فَهُوَ﴾ يقال لمن يعقل من الدواب، وقد أكد تعالى ذلك من خلال قوله: ﴿يَتَكَلَّمُ﴾ لأن الكلام لا يكون إلا للعقلاء الأمر الذي يوضح أن تلك المركبة لا بد أن يكون فيها دابة عاقلة وذكية -، ومن أجل ذلك سميت في الآية سلطاناً، لأن السلطان من بين معانيه القوة والقهر والحجة والبرهان، ومن هذا قيل للوالي سلطاناً لأنه حجة الله في الأرض، كذا ورد في القرطبي ومعاجم اللغة، مما يعني أن تلك الدابة التي ستنزل إلى الأرض لا بد أن تكون أقوى وأذكى من دواب هذه الأرض، لأنها ستسلط عليهم سواء كان ذلك بقوة الحجة والبيان أم بقوة الساعد وما تملكه من أدوات تقنية، وفي الحالتين لا يستطيع الإنسان أن يقاومها لأنها أقوى منه، كما أن هناك ملاحظة أخرى جديرة بالذكر وهي أن لفظ سلطان قد تكرر ذكره في القرآن مرات عديدة، وفي كل هذه المرات ورد دون ال التعريف أي سلطاناً وليس السلطان، لأن السلطان في اللغة معناه الملك والوالي والحاكم، وحين الحديث عن السموات والأرض يكون الملك هو الله لأنه هو السلطان وما الكون إلا بعض مملكته، من هنا جاء التعبير في سورة الرحمن والروم بلفظ سلطاناً ليدل على أن مقصود هذا اللفظ في الآيتين واحد، ويتعلق بالمخلوق لا الخالق، أي أنه وسيلة الإنسان الوحيدة في النفاذ من أقطار الأرض والوصول إلى مسافات بعيدة في السماء، وهذا ما ينطبق على الدابة التي ستنزل علينا من الأرض الثانية، لأنها بنزولها في تلك المركبة أو الطبق الطائر مثلاً ستكون سلطاناً وحجة على الناس بحيث لا يمكن لأحد مواجهتها، ولعل ما يؤكد ذلك أيضاً هو معنى قوله تعالى في سورة السجدة ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ حيث يفيد هذا النص بأن تلك الدابة سوف ترجع ثانية إلى مكانها في السماء دون أن تمس بأذى، وليس ذلك لأن أهل هذه الأرض مسالمون، كلا فهي ستنزل في وقت يكثر فيه الفساد ويعم فيه الكفر بدليل قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ [النمل: ٨٢] ووقوع القول يعني استحقاق العقاب وهذا لا يكون إلا إذا كثر الخبث. من هنا يكون رجوع الدابة سالمة إلى السماء فيه دلالة على عجز دواب هذه الأرض عن إلحاق الضرر بها مما يعني أنها

ستكون أقوى وأذكى منهم، وهذا بعض ما أوحى به الحديث الشريف إذ يقول (وولت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب)[١].

وبناءً عليه يكون قوله في سورة النمل ﴿ ۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ هو تفسير وتفصيل لقوله: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الروم]. لأن الكلام في الآية الأولى يشبه الكلام في الآية الثانية مما يعني وجود تطابق في المعنى بين الآيتين، كما أن آية الروم هذه هي تفسير وتفصيل لما جاء في آية السجدة لأن قوله ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ معناه أنه ينزل شيئاً ما من السماء إلى الأرض، وقد جاءت آية سورة الروم لتكشف لنا عن هوية هذا الشيء المراد تنزيله إلى الأرض بنص قوله: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ فالسلطان إذن هو تفسير لمعنى الأمر في سورة السجدة وبما أن السلطان من إحدى معانيه الآية الواضحة والبرهان الساطع فإن هذا يعني أن هذا الشيء الذي سينزل من السماء إلى الأرض سوف يكون آية للناس، ولهذا فقد ذكر تعالى في آية أخرى من الكتاب مؤكداً هذا المعنى ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء] وقد اختلف أهل التأويل في معنى هذه الآية فقال بعضهم إن معناه فظل القوم الذين أنزل عليهم من السماء الآية خاضعة أعناقهم لها من الذلة. وقال قتادة لو شاء الله لنزل عليهم آية يذلون بها فلا يلوي أحد عنقه إلى معصية الله، قال أبو جعفر وأولى الأقوال في ذلك بالصواب وأشبهها بما قال أهل التأويل في ذلك تكون الأعناق هي أعناق الرجال وأن يكون معنى الكلام ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ ﴾ ذليلة للآية التي ينزلها الله عليهم من السماء، وأن يكون قوله: ﴿ خَٰضِعِينَ ﴾ مذكراً[٢]، فالآية إذن ستنزل من السماء بمشيئة الله وهي آية كبرى لقوله ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ وهذا الوصف للآية إنما ينطبق على الدابة لأنها آية للناس وعلامة كبرى للساعة، مما يعني أن إخراج الدابة سوف يكون من الأرض الثانية في السماء وليس من

---

(١) تحفة الأحوذي شرح الترمذي. ج٩/ ٤٥.

(٢) الطبري الجزء التاسع عشر.

هذه الأرض. يؤكد ذلك لفظ (أخرجنا) في الآية إذ يفيد إبراز الشيء وتحريكه من موضعه، كما تعني هذه الكلمة أيضاً أن ذلك الشيء قبل أن يخرج لا بد أن يكون مستوراً ومخفياً عن الأنظار أي أنه مخبوء، وهذا ما يفسر لنا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٢٥]. حيث أن الخبء في اللغة يعني الشيء المستور والمخبوء، وهي كلمة عامة تشمل فيما تشمل هذا الشيء المراد إخراجه من السماء وهو الدابة، لقوله تعالى: ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٨٢] أي الأرض الثانية في السماء لأن الدابة هي جزء من الخبء المذكور في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ كما أن الخبء لا يسمى خبئاً إلا إذا كان مخبوءاً عن الناس، فهو إذن خبء بالنسبة لنا وللمخلوقات وليس بالنسبة إلى الله، لأن الله تعالى هو خالق كل شيء ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، لذلك فإن دواب الأرض الثانية تدخل في معنى الخبء بالنسبة لنا لأنها مخبوءة عنا ولم نشاهدها بعد، والذي خبأها هو الله تعالى وذلك إلى حين ولحكمة هو يعلمها. من هنا يكون قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى] داخل في معنى الخبء المنصوص عليه في الآية، لأن تلك الدواب التي في السموات ما زالت مجهولة وغريبة عنا وستظل كذلك إلى أن تخرج إحداها وتكلم الناس. وحين يتحقق ذلك وتجتمع هذه الدواب بمشيئة الله، يتحقق معنى قوله تعالى في آخر الآية ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ ومعنى قوله: ﴿ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وقوله أيضاً: ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ وقوله كذلك: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ ثم قوله: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ وقوله: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧] فخروج الدابة إذن من الأرض المجاورة هو تحقيق لهذه المعاني كلها، وبناءً عليه يكون قوله ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾. هو تفسير لقوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ لأن المقصود بالأرض هو الأرض المجاورة التي في السماء، فيكون قوله: ﴿ مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ في سورة النمل وقوله: ﴿ مِنَ

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في سورة السجدة معناه نقل الدابة أو الشيء المراد تنزيله إلينا من مكان إلى آخر في السموات، وهذا يدخل في معنى قوله: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأن انتقال بعض ما هو مخبوء في السماء مثل ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ المشار إليه في سورة السجدة أو السلطان المذكور في سورة الروم وفي آية النمل ﴿دَآبَّةً﴾ وكلها ألفاظ تعبر عن الشيء المراد إخراجه وتنزيله إلى هذه الأرض، إن انتقال هذا الشيء من مكانه في السماء إلى مكان آخر فيها لا يعني أنه قد خرج من دائرة وأقطار السموات السبع لأنه تعالى قال: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولم يقل من السموات ولو قالها لكان المعنى يحتمل اخراجه من أقطار السموات السبع والكون كله، ولكنه تعالى لم يقل ذلك بل قال ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ليؤكد لنا أن هذا الشيء المراد إخراجه وتنزيله إلى الأرض مهما بعد مكانه وبلغت سرعته وطالت رحلته فإنه سيظل في إطار هذه السموات ولن يخرج منها، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن معنى الآية ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ سيتحقق قبل يوم القيامة، لأن في الآخرة تكون هناك جنة ونار والجنة عرضها السموات والأرض والنار لا يعلم حجمها إلا الله، وهذه وتلك يفوق حجمهما حجم السموات والأرض مما يعني أن محاسبة الناس في اليوم الآخر ودخولهم الجنة أو النار معناه خروجهم من دائرة السموات والأرض المعروفة لنا، أي أن الخروج هناك سيكون حتمياً لأنه يتعلق باليوم الآخر، ولكن لمّا كان تعالى قد أكد في هذه الآية أن إخراج الخبء سيكون في إطار السموات السبع وليس خارجها بدليل قوله: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فإن هذا يعني إن إخراج الخبء سيكون قبل يوم القيامة، ولعل ما يؤكد هذا المعنى هو أن الدابة جزء من الخبء، وأن إخراجها من مكانها يدخل في معنى إخراج الخبء، وسوف يتحقق ذلك قبل يوم القيامة لكونها آية وعلامة كبرى للساعة، وسيكون إخراجها من الأرض الثانية لأن قوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يختلف عن القول في الأرض أو دابة الأرض، فلو جاء القول أخرجنا لهم دابة في الأرض أو أخرجنا لهم دابة الأرض، لكان المعنى لا يحتمل إخراجها من الأرض الثانية وإنما من هذه الأرض بعينها. أما وقد ذكر تعالى ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فإن هذا يحتمل معنى إخراجها من الأرض الثانية، لأن الإخراج معناه نقل الشيء من مكانه، وبما أن المكان هو

الأرض والأرض اسم جنس، فإن هذا يعني أن احتمال اخراجها من الأرض المجاورة هو أمر ممكن بل وراجح، وخاصة إذا علمنا أن الإخراج من الأرض يعني الخروج من أقطار الأرض، ومثال ذلك أن الطائرة حين تطير من بلد إلى آخر فإنها لا تكون قد خرجت من الأرض، لأن حركتها تلك إنما هي انتقال من مكان إلى آخر في الأرض نفسها، أما حين تخرج سفينة فضاء من أقطار الأرض إلى القمر أو بعض الكواكب، فعندئذ يصح القول بأنها قد خرجت من الأرض، لذلك فإن القول بخروج الدابة من الأرض يكون معناه خروجها من أقطارها، لأن قطر الأرض ينتهي بانتهاء غلافها الجوي، وحين يتم ذلك لا تكون الدابة في الأرض بل في السماء، فلو كان خروجها من هذه الأرض فإنه سيتعذر على الناس مشاهدتها وسماع أقوالها، الأمر الذي يخالف قوله تعالى: ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ والذي يفيد المخاطبة عن قرب كما يتعارض مع كونها آية وعلامة كبرى للساعة، لأن الإنسان قد استطاع الوصول إلى القمر فلم يعد ذلك أمراً مستهجناً أو غريباً، لذلك فإن المعنى الصحيح للآية هو أنها ستخرج من الأرض المجاورة وبذلك يكون قد تحقق المعنى الحرفي والعلمي للآية. يؤيد هذا ما جاء في بعض التفاسير، فقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن (إن موسى عليه السلام سأل ربه سبحانه أن يريه الدابة، فخرجت ثلاثة أيام ولياليهن تذهب في السماء لا يرى واحد من طرفيها، فرأى عليه السلام منظراً فظيعاً، فقال يارب ردها فردها)[1] لاحظ قوله تذهب في السماء فإنه يعني أنها ليست من هذه الأرض، وهذا ما يقرب إلينا فهم قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرحمن]. فالنفاذ من أقطار الأرض إذن هو أمر ممكن لمن يأخذ بالسلطان، كما أن لفظ السموات في هذه الآية قد لا تعني السموات السبع بالتحديد وإنما يراد بها أكثر من سماء، وبما أن كل ما علاك هو سماء أي أنك لو صعدت إلى القمر مثلاً فإن كل لحظة تقضيها في الصعود يكون فوقك

---

(١) الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي المجلد السادس ص٣٧٩+ روح المعاني للألوسي البغدادي الجزء العشرون ص٢٣.

سماء وهكذا إلى آخر الرحلة، مما يعني أن لفظ السموات يصح أن يطلق على مجموع الطبقات التي يخترقها الإنسان أثناء ارتياده الفضاء، ولكن لنفرض أن معنى السموات في هذه الآية هو السموات السبع فهل هذا سيغير من النتيجة شيئاً؟ الجواب لا لأن الله تعالى قد خلق في هذا الكون عقلاء مثلما خلق في الأرض لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] فالدابة إذن موجودة في السموات كما هي موجودة في الأرض، وإن هذه الدواب العاقلة المبثوثة في الكون موجودة في كل سماء، وقد تختلف أماكنها في السماء بحسب قوانين نشأتها التي قدرها الله، فمنها ما هو في وسط السماء، ومنها ما هو في طرفها أو في أقصاها، أي قريباً من بداية السماء الثانية وهكذا الأمر في كل السموات، فيكون المعنى بناءً عليه هو أن أهل الأرضين الموجودين قريباً من حدود السماء الثانية أو الثالثة أو الرابعة مثلاً، حين ينفذون من أقطار أرضهم أو أراضيهم فإن أقرب مجموعة شمسية لهم تكون في السماء التي تليهم، وحين يتحقق لهم ذلك يكون الإنس قد نفذوا ليس فقط من أقطار أرضهم وإنما من أقطار السموات أيضاً، وهنا قد يخطر ببال أحد أن يسأل وماذا عن سكان السماء السابعة أي إلى أين ينفذون؟ والجواب إن من يسكن في الأرض المجاورة للسماء السادسة قد ينفذون إليها أي إلى السماء السادسة. وأما من يسكن في الطرف الأخير من السماء السابعة وهذا مجرد افتراض لا أرجحه ولا أقول به لأن الراجح لدي والله أعلم أنه لا وجود للدواب العاقلة في الطرف الأخير للسماء السابعة، لأن بعد السماء السابعة يوجد خلق غيبي أكبر من السموات والأرض وهو الكرسي وبعد الكرسي العرش، وهذان الخلقان لا يعلم حقيقتهما إلا الله تعالى، يؤكد ذلك نص الحديث الشريف (ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة)[1] مما يوحي بأنه لا وجود لمثل هذه الدواب في الطرف الأخير للسماء السابعة، وأقول في آخرها لأن السماء السابعة مثل بقية السموات عامرة بالأحياء، ولكن هذه الأحياء قد لا

---

(١) أخرجه الآجري وأبو حاتم البستي في صحيح مسنده والبيهقي وذكر أنه صحيح.

توجد في آخر السماء السابعة، وإنما في وسطها أو في طرفها الموالي للسماء السادسة أو أنها بعد الوسط بقليل، ولكن على فرض وجود مثل هذه المخلوقات، فإنها لا تستطيع النفاذ إلى خارج السماء السابعة إلا إذا كان هذا النفاذ إلى السماء السادسة فهذا أمر جائز، أما أن تنفذ خارج حدود الكون فهذا مستحيل لأن ذلك ممنوع عليهم، فلقد حدد تعالى أن النفاذ محصور داخل السموات السبع لا خارجها لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومن هذا يتبين أن معنى الآية يتعلق بإمكانية النفاذ من أقطار السموات والأرض قبل يوم القيامة لا بعده، وذلك شريطة الأخذ بالسلطان وهو شرط ممكن التحقق لمن أراد وعزم على ذلك وليس مستحيلاً، لأنه من غير المعقول أن يضع الله شرطاً تعجيزياً للبشر، لأن كل الشروط المذكورة في القرآن هي من النوع الممكن وفي حدود طاقة الإنسان وقدرته لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، فحين يقول تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] فإنه يعني أن الإنسان يستطيع أن يأخذ بأسباب النصر إن هو أراد ذلك، وحين يقول تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] فإنه يعني أيضاً أي إن عدتم إلى الإفساد والكفر والمعصية عدنا لعقابكم وتسليط عبادنا عليكم، وهكذا الحال في كل الشروط مما يعني أن الأخذ بأسباب النفاذ من أقطار الأرض هو أمر ممكن وفي حدود الاستطاعة لأن قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ معناه إن بذلتم ما في وسعكم من جهد وطاقة، والاستطاعة دليل القدرة والإرادة وتكرار المحاولة، وهي تحمل معنى الحث واستنفار الإرادة وتحريكها نحو اكتشاف وسيلة النفاذ ألا وهي السلطان، فالسلطان إذن هو نتاج تسخير القدرة الإنسانية في ممارسة إرادة النفاذ وفق القوانين الموضوعية، وأعني بالموضوعية القوانين التي لا دخل للإنسان في وضعها، لأن الذي وضعها هو الله خالق الإنسان وإن اكتشافنا لها لا يعدو كونه ترجمة عملية للآية الكريمة ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق] ومن هنا يكون لفظ (سلطاناً) جامعاً للإرادة والقدرة والعلم على حد سواء. ولم يحصر تعالى ذلك في المؤمنين دون سواهم لأن الخطاب جاء للعموم ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ وهذا يشمل الكافر والمؤمن على السواء مما يعني أن إمكانية النفاذ من أقطار السموات والأرض قد تتحقق لكل من يأخذ بالأسباب بصرف النظر عن دينه

ومعتقده، وقد جاءت الأحداث في هذا القرن لتؤكد مصداقية هذا التأويل، حيث أن الإنسان قد خرج من أقطار الأرض ووصل إلى سطح القمر، الأمر الذي يدل على أن مقصود هذه الآية يتعلق بالنفاذ من أقطار الأرض قبل يوم القيامة لا بعده، لأن يوم القيامة تبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وحين تبدل الأرض والسموات لا نعرف هيئتها ولا شكلها الذي ستنتهي إليه، كما أن الإنسان في هذه الدنيا غيره في الآخرة إذ أن كل شيء سيتغير في هذا الكون، وبما أن الخطاب في هذه الآية للمعلوم وليس للمجهول، أي أن الخطاب موجه لعالمي الجن والإنس الموجودين في هذه السموات والأرض بعينها وذلك قبل إجراء التبديل عليها، فإن هذا يعني أن النفاذ سيتم قبل يوم القيامة لا بعده، أي قبل تغيير نواميس الكون، كما أن هناك لطيفة أخرى مستوحاة من ألفاظ هذه الآية الكريمة مثل قوله ﴿ ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ ﴿ تَنفُذُوا۟ ﴾ ﴿ فَٱنفُذُوا۟ ﴾ ﴿ تَنفُذُونَ ﴾ فهذه الألفاظ جميعها وردت بصيغة الجمع، مما يعني أن عملية النفاذ لن تتحقق من قبل فرد أو اثنين فقط أو تحدث مرة وينتهي الأمر، وإنما سيسهم بها أفراد كثيرون لأن صيغة الجمع في الآية تقال للجماعة لا للفرد مما يؤكد أن هذه المهمة لا يقدر عليها فرد بعينه، لأنها مهمة صعبة وتحتاج إلى جهد عدد كبير من العلماء المتخصصين في كل علوم الكون، هذا فضلاً عن أن صناعة المركبة الفضائية التي ستقل الإنسان خارج حدود الأرض، يشترك فيها مجموعات كبيرة من البشر مما يؤكد أنها مهمة جماعية أكثر منها فردية، لذلك جاءت الآية تحمل ألفاظ الجمع وقد شاء الله تعالى أن يتحقق معنى هذه الآية ومدلول هذه الألفاظ بالتحديد في هذا العصر، وذلك من خلال الرحلات الجماعية لرواد الفضاء وخروجهم من أقطار الأرض مما يؤكد إعجاز الآية وسبقها للأحداث، لأنها نزلت في زمن لم يكن فيه الإنسان يحلم أو يفكر في ارتياد الفضاء، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩ ﴾ [الانشقاق] وهذا قسم من رب العزة يؤكد حتمية ركوب الإنسان طبقاً عن طبق، قال الطبري في تفسيره (إن الكلام قبل قوله ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ جرى بخطاب الجميع وكذلك بعده، فكان أشبه أن يكون ذلك نظير ما

قبله وما بعده)[1] وهذا يعني أن الخطاب في قوله ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ هو للجنس واللام للمستقبل وتأويلها لا يكون على المجاز لأن كل الآيات التي وردت فيها مشتقات الركوب جاءت على الحقيقة وهي إحدى عشرة آية كريمة، يؤكد ذلك قوله تعالى في تكملة الآية ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي سماء عن سماء لأن السموات طباقاً بعضها فوق بعض دليله قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥] من هنا يكون الركوب حتمياً، وبما أن الإنسان ليس له جناحان يطير بهما في السماء، فإن معنى الآية يقتضي حكماً مفاده أن الإنسان لا بد أن يهتدي بمشيئة الله إلى وسيلة نقل تقله إلى خارج أرضه، ليتحقق بذلك وعد الله بالنفاذ والارتقاء في السماء درجة بعد أخرى مصداقا لقوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ كما أشار عز وجل إلى هذا المعنى في آية أخرى من الكتاب حيث قال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وقد جاء العلم الحديث ليؤكد هذه الحقيقة القرآنية. حيث كشف عن أن نسبة الأكسجين تقل في الجو كلما صعد الإنسان في السماء مما يتسبب ذلك في صعوبة التنفس لديه وبذلك يضيق صدره وهذا من إعجاز القرآن، لأن لفظ ﴿يَصَّعَّدُ﴾ بتشديد الصاد والعين معناه فعل شيء بعد شيء، أي أنه يفيد استمرار فعل الصعود في السماء مما يعني أن الإنسان سوف يستمر في الصعود حتى يتحقق له النفاذ من أقطار الأرض، أما استدلال العلماء على نفي عملية النفاذ بالآية التي بعدها وهي ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ [الرحمن] فإنه استدلال خاطىء لأن هذه الآية إنما جاءت لتفسر الآية السابقة ولتحديد مدى النفاذ في الكون والوصول إلى منطقة محددة في السماء، أي أن الإنسان حين يتجاوز في النفاذ منطقة بعينها في السماء لا يعلم مكانها إلا الله، فإنه سوف يصطدم بأجسام غريبة مكونة من نار ونحاس وعندها سيتلاشى وينتهي، ومن هنا تكون هذه الآية ليست نافية لعملية النفاذ التي أكدتها الآية السابقة، وإنما هي مكملة لها وموضحة حدود هذا النفاذ في

---

(١) عن جامع البيان للطبري الجزء الثلاثون ص١٢٥.

الكون، وهذا يعني أن الإنسان مهما وصل من العلم والقدرة على ارتياد الفضاء الخارجي فإنه لن يخرج من دائرة السموات السبع، لأن خروجه من أقطار الأرض ووصوله إلى بعض الكواكب في السماء لا يعني خروجه من دائرة الكون وقد تقدم بيان ذلك في شرح معنى قوله: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولا حاجة للإعادة. ولكن يكفي أن نعلم بأن الإنسان سوف ينفذ من أقطار الأرض ويصعد في السماء، ولمّا كان الإنسان دابة عاقلة وهذه الدواب مبثوثة في السموات كما هي مبثوثة في الأرض، فإن هذا يعني أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ يشمل تلك الدواب أيضاً، لأن كل دابة عاقلة هي من الإنس وهذا يؤكد أن قانون النفاذ المشار إليه في الآية هو كوني أي أنه واحد في كل الكون، ولذلك فإن القول بخروج الدابة من الأرض الثانية يكون هو الأقرب إلى الصواب لأنه غير مخالف للشرع أو قواعد اللغة في شيء، كما أنه يتوافق مع مدلول الآيات السابقة الذكر، لأنه حين يقول تعالى في سورة السجدة ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ فإنه يعني بأنه ينفذ قضاءه وقدره على الأمر وهذا يقابله في سورة النمل قوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ فيكون إخراج الدابة من مكانها في السماء هو من تدبير الله عز وجل، كما أن الفاعل في الآيتين ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ و﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ هو واحد إنه الله تعالى. أما المفعول به في آية السجدة فهو ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ وفي سورة النمل ﴿دَآبَّةً﴾ فيكون قوله ﴿دَآبَّةً﴾ في سورة النمل تفسير لقوله ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ في سورة السجدة. كما يكون قوله ﴿لَهُمْ﴾ في سورة النمل تفسير لقوله ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ في السجدة لأن قوله: ﴿لَهُمْ﴾ معناه لأهل هذه الأرض وهو نفس مدلول قوله في سورة السجدة ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لأهل هذه الأرض أما قوله: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ فإنه يتضمن معنى المكوث في الأرض بعض الوقت والتريث قبل الرجوع إلى السماء لأن لفظ ﴿ثُمَّ﴾ يفيد الترتيب مع التراخي مما يدل على أن لهذه الدابة رسالة سوف تؤدى قبل أن ترجع، ونظير ذلك في سورة النمل قوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ فكلام الدابة للناس إذن هو رسالة وبيان والرسالة يحتاج اداؤها إلى وقت، وهذا معناه أن تلك الدابة لن ترجع إلى السماء فوراً وإنما ستمكث بعض

الوقت وهو مدلول لفظ ﴿ثُمَّ﴾ في الآية فيكون هذا التطابق في المعنى بين مدلول ألفاظ الآيتين دليل على صحة هذا التأويل، ولعل ما يؤكد ذلك أيضاً هو ما جاء عن وهب بن منبه أنه حكى من كلام عزير عليه السلام أنه قال: «وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس كل يسمعها وتضع الحبالى قبل التمام ويعود الماء العذب أجاجاً ويتعارن الأخلاء وتحرق الحكمة ويرفع العلم **وتكلم الأرض التي تليها**»[1] وما يهمنا في هذه الرواية هو أن الدابة ستخرج حتماً ولكن ليس من تحت سدوم كما قد ذكر وإنما من الأرض الثانية، لأن قول العزير عليه السلام: (وتكلم الأرض التي تليها) معناه إما أن الدابة ستصل إلينا من الأرض الثانية وتكلم أهل هذه الأرض مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ [النمل: ٨٢] أو أنها ستقوم بعد وصولها إلى أرضنا بإجراء اتصال مع المركز، أي مع الأرض الثانية لتخبرهم بأنها قد وصلت بسلام، وبهذا يكون قد تحقق معنى النص (وتكلم الأرض التي تليها) وأنا أرجح أن كلا الاحتمالين سيتحققان، لأن خروج الدابة من الأرض المجاورة بات في ضوء ما تقدم من بينات في حكم المؤكد، مما يعني أن الأرض ستكلم حتماً التي تليها وهو معنى قوله تعالى في آخر آية الشورى ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ وقوله في سورة السجدة ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾. [السجدة ٥].

أجل إن وجود تزاور بين حضارات السماء أمر قد ألمح إليه القرآن في أكثر من موضع مما استوجب وضعه تحت عنوان خاص هو تزاور حضارات السماء.

---

(١) ابن كثير المجلد الثالث ص٣٨٨.

إضافة إلى ما تقدم من آيات هناك آية أخرى في الكتاب تشير إلى هذا المعنى وان اختلف المفسرون في تأويلها وهي قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الطلاق]. فالأمر في هذه الآية قد يفيد نفس المعنى للأمر في قوله ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي أن شيئاً ما سينزله الله من السماء إلى الأرض لأن لفظ ﴿ يُدَبِّرُ﴾ في الآية يقابله لفظ ﴿يَتَنَزَّلُ﴾ في الآية الثانية وقوله في سورة السجدة: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني من الأرض الثانية الموجودة في السماء إلى هذه الأرض أي أنه يتنزل بين الأرضين، وهو نفس المعنى لقوله: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي بين الأرضين، غير أن هذه الآية هي أعم من آية السجدة لأنها تفيد تنزيل الأمر بين كل أرض والتي تليها، في حين تنص آية السجدة على أن الأمر سينزل إلى هذه الأرض من الأرض المجاورة فقط، مما يعني أن آية السجدة هي تفسير وتفصيل لما أجملته آية سورة الطلاق، وبهذا يكون الأمر في قوله: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ شاملاً لقوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة] كما ويشمل أيضاً كل أمر يتنزل بين سائر الأرضين، وبناء عليه يكون الأمر اسم جنس ويفيد معنى الجمع، أي أن الأمر الذي يتنزل بين الأرضين في الكون ليس معناه شيئاً واحداً منفرداً، وإنما يعني أن من كل أرض سوف ينزل أمر أو شيء، ويرجح أنه أحد سكان تلك الأرض إلى الأرض التي تليها، بمعنى أن الأرض السابعة مثلاً يقوم أهلها بإرسال مركبتهم الفضائية المأهولة إلى الأرض السادسة، كما يقوم أهل الأرض السادسة بإرسال دابة عاقلة منهم بواسطة مركبة فضائية متطورة تسمى (سلطاناً) إلى الأرض الخامسة، وبهذا يكون الأمر الذي وصل إلى الأرض الخامسة هو أحد سكان الأرض السادسة وليس الأمر أو الدابة التي وصلت إلى السادسة من الأرض السابعة، لأن عمر الإنسان مهما طال فلن يمكنه من

الوصول إلى أكثر من الأرض التي تلي أرضه. وهكذا إلى آخر أرض في الكون وهي أرضنا نحن، وبهذا يكون الأمر في قوله: ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ اسم جنس وليس مفرداً كما ويحتمل هذا النص الكريم ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ تأويلاً آخر شبيهاً بهذا وهو أن أهل كل سماء لا بد أن يرسلوا واحداً منهم إلى السماء التي تليها وبذلك يكون الأمر قد تنزل بينهن أي بين السموات والأرضين، وقد تقدم بيان ذلك في تأويل قوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن] مما يؤكد أن هناك عملية تزاور بين حضارات السماء الأمر الذي يفهم منه بأنهم أسبق منا في الخلق والوجود، وبذلك يكونون أرقى منا وأكثر علماً وتطوراً من حضارة الأرض. أما قوله تعالى في الآية: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطلاق: ١٢] فإنه يشبه قوله في سورة الشورى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]. وفي هذه الآية يؤكد تعالى على وجود هذه الدواب في السموات والأرض وأنه على جمعهم إذا يشاء قدير وأنا أرجح بأن مقصود قوله في آخر آية الشورى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ هو اجتماع هذه الدواب في الدنيا لأنه لو كان يتعلق بالآخرة لما جاء على هذا النحو ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾ لأن اجتماع الخلائق في الآخرة أمر مبتوت فيه وعبرت عنه الآية: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢] وعلى ذلك يكون قوله هذا: ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾ مقصود به الاجتماع في الدنيا قبل الآخرة أو على الأقل أنه يحتمل المعنيين وليس معنى واحداً، من هنا فإنه يصح لغة وشرعاً أن نرجح حدوث الاجتماع بين هذه الدواب في الدنيا، خاصة وأن الآية نفسها تشير إلى ذلك وهو معنى قوله تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لاحظ هنا وجه الشبه بين قوله في آخر آية الشورى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ والحديث بالطبع عن دواب السموات والأرض وبين قوله في هذه الآية ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فالألفاظ تكاد تكون واحدة من حيث المعنى في الآيتين مما يؤكد امكانية الاجتماع في الدنيا قبل الآخرة، كما يلاحظ التشابه في المعنى بين قوله تعالى في آية الشورى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ وقوله في

آية الشعراء: ﴿إن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ (الشعراء: ٤) فكما أن الآية الأولى تشير إلى امكانية حدوث الاجتماع في الدنيا بمشيئة الله فالآية الثانية تفيد المعنى نفسه لأن نزول الآية إنما يتم في الدنيا وبذلك يتحقق معنى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ (الشورى: ٢٩) وإلى هنا نخلص إلى نتيجة بأن اللقاء بين حضارة السماء وحضارة الأرض قد يتحقق في أية لحظة، وسوف يتم ذلك عن طريق إرسال مركبة فضائية من الأرض الثانية تسمى في الدين واللغة سلطاناً لقوله تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ وسوف تكون هذه آية للناس وعلامة كبرى للساعة، حيث ستظهر هذه الدابة أيام الحج في البيت الحرام بمكة المكرمة، لأن مكة هي مركز الكرة الأرضية كما أثبتت ذلك العلوم الحديثة.

* * *

مكان هذه الحضارة في السماء

والآن انتقل إلى نقطة جديدة في البحث تتعلق بتحديد مكان هذه الحضارة وبعدها عنا، حيث انني أرجح وجودها في أحد الكواكب التي تدور حول احدى النجوم القريبة منا، وحين أقول القريبة فإنني أعني تلك النجوم التي تبعد عنا مسيرة الضوء عشرات ومئات السنين، لأن النصوص المتقدمة قد دلت كما تبين على وجود هذه الحضارة على بعد مسيرة خمسمائة عام من أرضنا، ولم يرد في التنزيل نص يؤكد مقدار السرعة التي يجب أن يسير بها ذلك الأمر للوصول إلينا، غير أن هناك حديثاً شريفاً إذا صح الاستشهاد به يمكن معرفة بعد هذه الحضارة عنا بالسنوات الضوئية، وبالتالي يسهل علينا تحديد السرعة التي تتحرك بها تلك المركبة التي تقل الدابة المراد إخراجها للناس، وإليكم نص الحديث (عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ لو أن رصاصة مثل هذه وأشار إلى مثل الجمجمة، أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها[1] يشير هذا الحديث إلى أن الرصاصة لو أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة عام أي نفس المسافة التي تفصل هذه الأرض عن التي تليها، لوصلت إلينا قبل الليل أي قبل نصف يوم أو ما يعادل عشر ساعات تقريباً، والمعنى أن هذه الرصاصة تقطع هذه المسافة الكبيرة في زمن قصير جداً. ولكي نعرف مقدار سرعة هذه الرصاصة لا بد من البحث عن شيء ثابت نقيس عليه، مثل مسافة محددة أو سرعة ثابتة كسرعة الضوء مثلاً، لذلك قال عليه السلام في آخر هذا الحديث (ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها) أي أن هذه الرصاصة تقطع المسافة التي بيننا وبين

---

(٢) رواه الترمذي وقال إسناده حسن صحيح.

رأس السلسلة والتي قدرها العلماء بمليوني سنة ضوئية في أربعين سنة فقط، أو ربما كان المقصود أربعين خريفاً بمعنى عشر سنوات، وكل هذه المسافة هي دون قعر جهنم، وما يهمنا في هذا الحديث هو وجود شيء ثابت يقاس عليه، وهي المسافة بيننا وبين رأس السلسلة أو ما يسمى بلغة الحاضر بمجرة (المرأة المسلسلة) والتي تبعد عنا مليوني سنة ضوئية تقريباً. من هنا يتم تقسيم هذه المسافة على الأربعين سنة، لتكون النتيجة الحصول على نسبة سرعة الرصاصة بالنسبة إلى سرعة الضوء والتي تقدر نحو خمسين ألف ضعف سرعة الضوء، فإذا كان الضوء يسير في الثانية الواحدة ٣٠٠,٠٠٠ كم/ث فإن الرصاصة تسير هذا الرقم مضروب في ٥٠,٠٠٠ أي ١٥,٠٠٠,٠٠٠٠٠٠ كم/ث وبناءً عليه يمكن معرفة المسافة التي بيننا وبين الأرض الثانية وذلك بضرب الزمن الذي تستغرقه الرصاصة في مسيرتها من الأرض المجاورة إلى أرضنا وهي عشر ساعات تقريباً وذلك بعد تحويلها إلى ثواني في سرعة الرصاصة البالغة ١٥,٠٠٠,٠٠٠٠٠٠ كم/ث لتكون النتيجة من ذلك هي ٥٤٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠٠٠٠ كم أي خمسمائة وأربعون مليون مليون كم تبعد عنا الأرض المجاورة. وهنا يمكن تقسيم هذه المسافة على سرعة الضوء في الثانية الواحدة ثم تقسيم الناتج على عدد الثواني في السنة الواحدة والبالغة ٣١,٥٠٠,٠٠٠ ثانية في السنة تقريباً لينتج عن ذلك بعد الأرض المجاورة عنا بالسنوات الضوئية أي نحو ٥٧ سنة ضوئية أو يزيد قليلاً، وهي مسافة معقولة بالنسبة للمسافات الكونية أما إذا أردنا أن نعرف سرعة المركبة الفضائية التي سوف تقل الدابة من الأرض المجاورة إلى هذه الأرض، فإننا يجب أن نحول المسافة المذكورة من السنوات الضوئية إلى الكيلومترات، ثم نقسم الناتج على عدد الثواني في الخمسمائة سنة التي هي مدة الرحلة من تلك الأرض البعيدة إلى أرضنا ليكون الحاصل من هذه القسمة نحو خمسة وثلاثين ألف كيلو متر في الثانية الواحدة، أو ما يعادل ٨/١ من سرعة الضوء تقريباً. أما إن كان المقصود بالأربعين خريفاً هو مجموع أيام فصول الخريف في أربعين سنة فقط وهذا أمر جائز أيضاً لأن النص يحتمله، فإن النتيجة عندئذ ستتغير لأن المسافة المحددة بمليوني سنة ضوئية حين تقطعها الرصاصة في عشر سنين بدلاً من أربعين سنة

فإن ذلك يعني أن سرعة الرصاصة سوف تزداد أربع مرات عن السرعة التي بيناها، وأن بعد تلك الحضارة عنا سوف يكون أكثر من البعد المحدد بأربع مرات أيضاً، وإذا حاولنا ترجمة ذلك إلى أرقام تكون تلك الحضارة بعيدة عنا نحو ٢٣٠ سنة ضوئية تقريباً، وأن سرعة المركبة تبلغ نحو ١٤٠,٠٠٠ كم/ث أو ما يعادل نصف سرعة الضوء تقريباً، وهي سرعة خيالية كما يبدو إلا أنها بالنسبة إلى أهل تلك الحضارة سرعةمعقولة وممكنة لأنهم أكثر منا تطوراً وعلماً، وبناءً عليه يمكن القول بأن تلك الحضارة لن تكون بعيدة عنا أكثر من خمسمائة سنة ضوئية، لأن الإنسان مهما بلغ في علمه لا يتمكن من السير بسرعة الضوء، لذلك فإنني أدعو العلماء إذا ما أرادوا حقاً اكتشاف مكان هذه الحضارة في السماء، أن يركزوا جلّ اهتمامهم في البحث عنها في دائرة نصف قطرها أقل من خمسمائة سنة ضوئية بقليل، وكم أتمنى لو كان في بلدي ترجمة للمراجع العلمية التي تتضمن المعلومات الوافية عن النجوم المشابهة لشمسنا والتي تقع ضمن هذه الدائرة، لكي أحاول بعون الله وتوفيقه حصر وجود هذه الحضارة حول أقل عدد من النجوم بحيث يتم بعد ذلك ترجيح إحداها، ثم وضع النتيجة أمام العلماء لكي يتأكدوا بوسائلهم العلمية من صحة هذا الاحتمال. أجل إن ضآلة المعلومات العلمية المتوفرة لدي عن هذه النجوم تجعلني أحجم عن الخوض في تفاصيل تتعلق بمكان وجود هذه الحضارة، غير أنني آمل والأمل بالله كبير أن يأتي اليوم الذي سيتمكن فيه العلماء من اكتشاف مكان هذه الحضارة، واستقبال رسائل أو إرسال رسائل إليها لتتحقق بذلك نبوءة العزير عليه السلام (وتكلم الأرض التي تليها) وارى أن ذلك قد يتحقق من خلال الأخذ بهذين الشرطين الأول:- العمل على تحسين وتطوير وسائل الاستقبال الأرضية، وتكبير وتفعيل المراصد الفلكية بحيث تتمكن من التقاط أدق المعلومات عن الفضاء الخارجي، ويا حبذا لو تمكن العلماء من إرسال مرصد فلكي ضخم على سطح القمر، ليس لأغراض التجسس على أهل الأرض كما يفعل الغرب الآن، وإنما لاكتشاف حقائق كونية جديدة تهم الإنسانية والمجتمع البشري كله. والثاني:- التركيز على محاولة اكتشاف سرعة تفوق سرعة الضوء مؤكداً للعلماء أن مثل هذه السرعة موجودة، وخير مثال على

وجودها هو خلق الملائكة من نور والنور هو الضوء، وقد خلقهم الله تعالى منه على أشكال مختلفة كما خلق الإنسان من طين على أشكال مختلفة أيضاً، يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [فاطر] وقد جعل الله الملائكة متفاوتين في السرعة بحسب وظيفتهم، غير أنهم يقيناً أسرع من الضوء مما يعني أن الضوء نفسه يمكن للإنسان أن يجعله يسير بسرعة تزيد عن سرعته الحالية، لأن الإنسان قد خلقه الله متصفاً بالعلم والقدرة والإرادة ولكنها صفات محدودة وجزئية، أي أنها ليست صفات مطلقة كصفات الله تعالى، لأن الخالق غير المخلوق فإذا كان الله تعالى قد خلق الملائكة من نور وجعلهم يسيرون بسرعة تزيد عن سرعة الضوء بما لا يقاس من المرات، فإن الإنسان بموجب ما وهبه الله من علم وقدرة وإرادة قد يستطيع أن يستثمر الضوء فيما ينفعه، وقد يتمكن أيضاً من تعجيل سرعته مرات عديدة إذ ليس هناك ما يمنع من ذلك لأن الضوء أو النور هو جزء من الطبيعة أو المادة الكونية المسخرة للإنسان بنص قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ ﴾ [الجاثية: ١٣] ولم يرد في التنزيل ولا في السنة ما يفيد استثناء الضوء من عملية التسخير مما يعني أن الإنسان قد يتمكن من السيطرة عليه وزيادة سرعته إلى حدود معينة، وأقول إلى حدود معينة لأن قدرة الإنسان محدودة، لذلك فإنه مهما وصل الإنسان في علمه مستقبلاً فلن يتمكن من جعل الضوء يسير بسرعة ملائكية مثلاً، لأن قدرة الخالق وعلمه المطلقين غير قدرة وعلم الإنسان المحدودين، من هنا كان تسريع الضوء لا يعني التغيير من طبيعته لأن المركبة الفضائية التي صنعها الإنسان من عناصر هذه الأرض ولنفرض أنه تمكن مستقبلاً من زيادة سرعتها لدرجة جعلها تفوق سرعة الأرض نفسها فهل هذا يعني أنه غير من طبيعتها بحيث لم تعد مصنوعة من عناصر الأرض؟ الجواب كلا، لأن الذي حدث هو أنه قد زاد من سرعتها فقط ولم يغير من طبيعتها، وكذلك الأمر بالنسبة للضوء فلو زاد من سرعته فإنه سيبقى ضوء، لأن الذي سيحدث هو أن الإنسان قد يتمكن مستقبلاً من إخضاع الضوء لمعادلة علمية وعملية تجعله يسير بسرعة تزيد عن سرعته أضعافاً مضاعفة، وذلك يدخل في معنى قوله تعالى:

﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [العلق] وهذا ما أرجح أن تكون تلك الحضارة القريبة منا قد توصلت إليه منذ زمن بعيد، مما يفسر بأنهم قد أرسلوا إلينا رسائل من نور يشرحون فيها ما قلّ ودلّ عن حضارتهم، ولكن لعدم توفر الأجهزة المتطورة لدينا والوسائل العلمية الكافية لم نستطع حتى الآن من حل هذه الشيفرة أو حتى اكتشافها، لذلك فإن المطلوب من علمائنا اليوم مضاعفة الجهود المبذولة لاكتشاف هذه السرعة أو المعادلة التي تؤدي إليها، لبتمكن أهل الأرض من التعرف على أخوة لهم في الأرض المجاورة، وحينها سيتكشف للعلماء وغيرهم أسرار مذهلة عن حقيقة العبودية في الكون مما سيجعل الكثيرين منهم يؤمنون بالله ويعلنون إسلامهم، وعندها سيدخل الناس افواجاً في دين الله كما دخلوه أول مرة أفواجاً، ويتحقق بذلك وعد الله بإظهار دينه على سائر الأديان. أما القول بأنه إذا تم ذلك لا يعود ظهور الدابة أمراً عظيماً فالجواب عليه:

١- أنه لم يرد في الكتاب أو السنة نص يمنع من تحقيق ذلك قبل خروج الدابة مما يعني أن احتمال استقبال رسالة من حضارة أخرى في السماء هو أمر ممكن وليس مستحيلاً.

٢- إن قول العزير عليه السلام (وتكلم الأرض التي تليها) لا يعني أن أهل الأرض لن يتمكنوا من استقبال رسائل من حضارات أخرى في السماء، وإنما يعني فقط أن هذه الأرض ستكلم التي تليها بعد خروج الدابة مباشرة وهذا أمر يختلف عن استقبال أهل الأرض لرسائل من حضارات أخرى لأن الاستقبال غير الإرسال كما هو معلوم.

٣- أن قوله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢]. معناه أن الناس كانوا بخروجها لا يوقنون، لأن خروجها من الآيات هكذا قال بعض المفسرين، وأضيف بأنهم ربما كانوا لا يوقنون بخروجها من الأرض المجاورة لأن المسلمين كلهم يؤمنون بخروجها، ولكنهم لا يوقنون بخروجها من غير هذه الأرض والله أعلم. وبناءً عليه يكون خروج الدابة من مكانها هو الآية وليس وجودها أو محاولة اتصالها بنا، لأن وجود مثل هذه الدواب في السموات أمر قد نص عليه القرآن مما لا مجال لإنكاره، وقد تقدم بيانه تحت عنوان دواب

السموات والأرض. فالآية إذن تكمن في إخراجها وليس في استقبال رسائل منها، لأن الرسائل لا يتعدى هدفها اشعارنا بوجودها وتعريفنا على طبيعة تلك الحضارة، وهذا أمر ليس فيه غرابة، لأن هناك العديد من العلماء يقولون بهذا الاحتمال ويرجحونه، أما أن تخرج الدابة من مسافة تبعد عنا عشرات ومئات السنين الضوئية وتصل إلينا وتكلمنا، **فهذا هو الأمر المستغرب والمستبعد لدى أكثر الناس بما فيهم العلماء، من هنا يكون تحقق هذا الأمر هو المعجزة التي ستبهر الناس وتجعلهم يشعرون بعظمة هذه الآية حتى وإن تمكن أهل الأرض من استقبال رسائل منها مقدماً، لأن الاتصال غير الوصول فالوصول هو المعجزة وهو الآية الكبرى.**

قبول التوبة زمن خروج الدابة

١- يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [النمل]. قال بعض العلماء: المراد بالوقوع الدنو والاقتراب كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] والمعنى إذا دنا واقترب وقوع القول وحصول ما تضمنه، والقول هو ما وُعِدوا به من قيام الساعة، والمراد مشارفة الساعة وظهور أشراطها»[١] وقيل في معنى قوله: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي إذا وجب السخط عليهم بسبب تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والمعاني كما يظهر متقاربة لأن اقتراب مجيء الساعة وظهور أشراطها الكبرى معناه اقتراب يوم الحساب والعقاب، وبناءً عليه يكون اخراج الدابة علامة كبرى على قرب ختم الأعمال وعدم قبول التوبة الذي سيتحقق بطلوع الشمس من مغربها بعد ذلك مباشرة، ولكن من رحمة الله تعالى بالناس أنه لا يغلق باب التوبة قبل أن يستنفذ الإنسان كل أسباب الهداية ويقيم الحجة على الكافرين، علماً أنه تعالى يعلم في الأزل أن منهم من لا يؤمن ولو جاءته كل الآيات، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس] ولكنه مع ذلك لا يحاسب الناس على علمه وإنما يحاسبهم على مواقفهم وأعمالهم، من هنا يكون المعنى من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي إذا دنا واقترب تحقق القول على الكافرين بعدم قبول توبتهم ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي تكلم الكافرين وتنبئهم ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي بخروجها لأن خروجها من الآيات، فالكلام يكون مع الكفار ولكن الإخبار كما يبدو يكون عن الناس والمراد أكثرهم لا كلهم، أي أن أكثر الناس كانوا لا يوقنون بخروج الدابة من الأرض المجاورة، وفي هذا بيان أن السواد الأعظم من الناس بما فيهم

---

(١) تفسير الفخر الرازي + روح المعاني للعلامة الألوسي البغدادي.

المسلمون والعلماء سيظلون على قناعتهم بعدم خروجها من غير هذه الأرض إلى أن تخرج من الأرض المجاورة وتقول لهم ها أنذا قد خرجت، ثم تحاججهم ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة.

٢- يؤكد القرآن الكريم أن للدابة رسالة سوف تؤدى بدليل قوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ فالكلام رسالة والرسالة لا بد أن تكون هادفة وذات معنى وإلا ما فائدة الكلام إذا لم يكن هناك غاية وهدف أسمى، إن الكلام عادة يكون وسيلة للتعبير عن الأمر المراد، لذلك يكون كلام الدابة بمثابة إقامة الحجة على الناس ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة، وهذا يقتضي معنى قبول التوبة وليس العكس، مما يعني أن ختم الأعمال لن يكون زمن خروج الدابة وإنما بعد ذلك.

٣- لمّا كان الحديث الشريف ينص على أن طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً، فإن هذا يعني أنه ليس هناك آيات كبرى أخرى بين خروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها، أي أن يأجوج ومأجوج وخروج الدجال ونزول سيدنا عيسى عليه السلام وكل هذه الآيات سوف تكون قبل خروج الدابة بزمن لا يعلم مقداره إلا الله، يؤكد ذلك ما جاء في الصحيح (جلس إلى مروان بن الحكم في المدينة ثلاثة نفر من المسلمين فسمعوه وهو يحدث عن الآيات أن أولها خروجاً الدجال)[1] كما أخرج نعيم عن وهب بن منبه قال: (أول الآيات الروم ثم الدجال والثالثة يأجوج ومأجوج والرابعة عيسى والخامسة الدخان والسادسة الدابة)[2] أما ان احتج أحد بالحديث الشريف (ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض)[3] فإن الجواب عليه أن هناك أحاديث أخرى في الصحيح يؤكد معناها أن الإنسان لا يختم على عمله زمن خروج الدجال فحين

---

(١) صحيح مسلم - المجلد الأخير ص٧٨.

(٢) من الدر المنثور المجلد السادس ص٣٨٣.

(٣) صحيح مسلم المجلد الأول ص١٩٥.

يحذر الرسول عليه السلام أمته من الدجال بقوله (إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم، أنه شاب قطط عينه طافئة كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف إنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يميناً وعاث شمالاً يا عباد الله فاثبتوا)[1]. وحين يقول عليه السلام أيضاً (ما من نبي إلا وأنذر أمته الأعور الكذاب ألا إنه أعور وأن ربكم ليس بأعور)[2]. فإن هذا يعني أن النفس ينفعها إيمانها كما يضرها كفرها كذلك، وإلا ما فائدة كل هذا التحذير إن كان الإنسان سيختم على عمله زمن خروجه؟ ثم إليكم حديث آخر في الصحيح (إن الدجال يخرج وإن معه ماءً وناراً فأما الذي يراه الناس ماءً فنار تحرق وأما الذي يراه الناس ناراً فماء بارد عذب فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه ناراً فإنه ماء عذب طيب... الخ)[3] قال العلماء: «هذا من جملة فتنته امتحن الله به عباده ليحق الحق ويبطل الباطل ثم يفضحه ويظهر للناس عجزه» ومما يؤكد صحة هذا الرأي هو أن عيسى عليه السلام سوف ينزل بعد الدجال وسيؤمن به كل أهل الكتاب لقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ [النساء: ١٥٩] وهذا يعني أن النفس ينفعها إيمانها حينئذ وليس العكس، كما أن ختم الأعمال معناه أن المحسن في ذلك الزمان لا يثاب على إحسانه وأن المسيء لا يضره زيادة اساءته، وحين يكون الأمر كذلك تنعدم حوافز محاربة الدجال وجيشه وهذا أمر مخالف لروح النص فضلاً عن مخالفته للعقل، من هنا فإن ختم الأعمال لن يكون زمن خروج الدجال وإنما حين تطلع الشمس من مغربها والله أعلم.

٤- لما كان بعض المتأخرين من المفسرين قد قال (إن الأقرب أن تكون هذه الدابة إنساناً متكلما يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم، لينقطعوا فيهلك من

---

(١) صحيح مسلم المجلد التاسع ص٦٥.

(٢) صحيح مسلم الجزء الأخير.

(٣) صحيح مسلم الجزء الأخير.

هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة[1] فإن هذا يعني أن عدم قبول التوبة وختم الأعمال لن يكون زمن خروج الدابة وإنما زمن طلوع الشمس من مغربها، وأنا إذ أوافق هؤلاء المفسرين على أن الدابة إنسان متكلمٌ فإني أخالفهم في شيء واحد، هو أن هذه الدابة ليست من إنس هذه الأرض وإنما من إنس الأرض المجاورة، ولو جاء تفسيرهم للدابة على هذا النحو لما وقع استغراب وإنكار من بعض العلماء وخاصة الإمام أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي في كتابه (المفهم) حيث نفى فيه احتمال أن تكون الدابة إنساناً وهو معذور في ذلك، لأنه ليس من السهل على الإنسان أن يسبق عصره بمئات السنين، لأن الإدراك العام في ذلك الوقت لم يكن يستوعب أن هناك إمكانية لمثل هذا الاحتمال، فإذا كان هذا الفهم الجديد قد استغربه علماء في القرن العشرين وهو قرن العلوم وغزو الفضاء فكيف يكون مقبولاً في ذلك الزمان؟!

٥- إن كون خروج الدابة علامة كبرى للساعة لا يعني أنها دليل على ختم الأعمال، لأن هناك آيات أخرى بين يدي الساعة تكون التوبة زمنها مقبولة، مثل الدجال ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى عليه السلام، لذلك إذا كان باب التوبة سيقفل بخروج الدابة فما فائدة كلامها للناس عندئذ؟ وما جدوى طلوع الشمس من مغربها بعد ذلك؟ إن ختم الأعمال والله أعلم سيكون بعد طلوع الشمس من مغربها وهذا ما أكده الشيخ إسماعيل حقي بقوله: (فإنه لا يغلق باب التوبة إلا بعد الطلوع والعلم عند الله تعالى)[2] وهذا أيضاً ما أجمع عليه العلماء عبر كل العصور، أما عدم قبول الإيمان زمن تحقق الآيات الأخرى فإنها موضع خلاف وليس محل اتفاق، مما يرجح أن زمن خروج الدابة ليس هو الزمن الذي لا تقبل التوبة فيه.

٦- إن قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء] يدل على أن الأعناق سوف تخضع للآية التي ينزلها الله من السماء، وليس هذا معناه أن الناس كلهم سيؤمنون بالله حين نزولها، لأن قوله: ﴿لَهَا

(١) تفسير القرطبي.

(٢) عن تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ص١٣٥.

﴿خَاضِعِينَ﴾ يعني والله أعلم أن الأعناق ستخضع للآية التي ستنزل عليهم وليس لمنزل هذه الآية، ولو جاء النص -لنا خاضعين- بدلاً من ﴿لَهَا﴾ لكان المعنى أن الجميع سيؤمنون بالله تعالى، وحينها قد لا ينفع النفس إيمانها، لأن الإيمان حين يكون إجبارياً ومفروضاً لا يثاب عليه الإنسان ولا يقبل منه، ولكن لمّا جاء النص ﴿لَهَا خَاضِعِينَ﴾ فإن ذلك يعني أن الخضوع سيكون للآية نفسها أي أن الجميع سيشعر بعظمة هذه الآية، لأن خروج الدابة من مكان يبعد عنا مئات السنوات ووصولها إلى الأرض ليس شيئاً عادياً، إنها حقاً آية عظيمة تدعو إلى الأذعان والدهشة والتسليم بعظمتها، ولكن قد يختلف الناس بشأنها، فمنهم من سيعتبرها آية تدل على وجود الله وقدرته وعظمته فتكون سبباً في هدايتهم إن كانوا من الكافرين أو الضالين، أو زيادة في إيمانهم إن كانوا من المؤمنين، ومنهم من سيعتبرها آية على صدق النظريات العلمية القائلة بوجود كائنات عاقلة في كواكب أخرى غير الأرض دون أن يدفعهم ذلك إلى الإيمان بالله، وهؤلاء ستكلمهم الدابة وتقيم الحجة عليهم فإن آمنوا فقد اهتدوا، وإن لم يؤمنوا فسوف يحق عليهم القول، لأنهم ممن ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وبعد ذلك تطلع الشمس من مغربها ويقفل باب التوبة وتختم الأعمال مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] جاء في القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ قيل: هو طلوع الشمس من مغربها، بيّن بهذا أنهم يمهلون في الدنيا فإذا ظهرت الساعة فلا إمهال.

وذكر عن صفوان بن عسال المرادي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة مسيرة سبعين سنة لا يغلق حتى تطلع الشمس من نحوه»[1].

---

(١) أخرجه الدارقطني [والدارمي] والترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح الجزء السابع للقرطبي ص١٤٥.

خاتمة

في الختام لا بد من كلمة أقولها للناس، إن عصر الدجال وخروج الدابة لن يأتي إلا بعد عودة الإسلام وفتح روما وإن ذلك لكائن رغم أنف الكافرين وهوان المسلمين، وإن المعادلة التي تحكم الأرض اليوم لن تبقى كما هي إلى الأبد بل إن كل شيء سيتغير لأن الله وعد بذلك، أجل إن المسلمين اليوم أضعف من أن ينتصروا على عدوهم في مجابهة عسكرية، لأن المشركين يقاتلوننا كافة ونحن نقاتلهم متفرقين، ومن غير المعقول أن تنتصر أمة متفرقة على أمم متوحدة، ثم إن الغرب الكافر أقوى منا اليوم وأكثر تطوراً وتسليحاً، ولن يسمح لنا بامتلاك أسلحة متطورة مثله أو حتى أقل منه، لذلك فإن انتصار المسلمين على أعدائهم في المدى القريب امر مستبعد إن لم يكن مستحيلاً، من هنا كان عليهم بدلاً من الاستسلام والركون إلى الدنيا أن يفتشوا عن أسباب ضعفهم وتخلفهم، ويحزموا أمرهم للتغلب على معوقات نهوضهم، وأن يبحثوا عن نقاط القوة لديهم وهي كثيرة بحمد الله فيتمسكوا بها ويحسنوا استثمارها، وفي مقدمة هذه النقاط العقيدة الصحيحة والمنهج السليم، وإنني على يقين بأنهم إن فعلوا ذلك، فسوف يكون النصر حليفهم، وسيحققون بإذن الله فتحاً جديداً يفوق الفتوحات العسكرية التي يطمحون إليها، لقد فتحت بلاد إسلامية كثيرة في السابق دون قتال، فكانت التجارة والدعوة هي السبيل، ولو أن المسلمين استثمروا بعض ما لديهم من إمكانات، وما وهبهم الله من طاقات وثروات في تحسين أوضاعهم ونشر العلوم والثقافة وتخريج الدعاة المبدعين وخلق النموذج الإسلامي المتميز بين جاهليات القرن العشرين، لكانت هذه شهادة حق تؤديها الأمة على صلاحية هذا الدين، وسبباً في إسلام خلق كثير، ولكن المسلمين اليوم نيام ومقصرون ومع ذلك فإن الحال لا يدعو لليأس أو الإحباط بقدر ما يدعوا إلى شحذ الهمم وعقد العزم على النهوض من جديد، لقد وعدنا الله بالنصر والتمكين في الأرض إن نحن عدنا إلى الإسلام وعملنا

صالحاً ولا بد أن نعود، لأن الخلافة الراشدة التي بشر بها الرسول ﷺ قادمة وحتمية التحقق وهي منا قاب قوسين أو أدنى ولكن أكثر الناس لا يعلمون، لقد انتصر الإسلام يوماً رغم ضعف المسلمين مادياً، لأن القوة تكمن في هذا الدين أكثر مما تكمن في المسلمين، وقد أسلم قادة التتار حين كان المسلمون منهزمين، وعادوا وفتحوا بلاداً في روسيا، وإنني على يقين من أن التاريخ سيعيد نفسه من جديد، وسوف يسلم علماء وقادة كبار من أهل الغرب حين يقفون على حقيقة الإسلام، نعم لقد بدأ الإسلام بالكلمة قبل السيف وبالدعوة قبل الدولة، فانتصر الإسلام ثم انتصر المسلمون بعد ذلك، وأن المسلمين اليوم بحاجة إلى ثورة ثقافية وعلمية أكثر من حاجتهم إلى الخبز والسلاح، لذلك فإنني أدعو من بيدهم الأمر والقدرة من المسلمين أن يبادروا بعد التغلب على مشكلة الفقر والجوع، في انشاء المراكز العلمية المتخصصة في مختلف العلوم والميادين، لكي تكون بلادنا منارة علم وهدى للعالمين، وإن أملي بالله كبير أن يكون القرن الواحد والعشرون هو قرن زوال جاهلية بني يهود ومن يدعمهم، وعودة الإسلام للحكم من جديد ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١].

انتهى بحمد الله

فهرس الكتاب

اسم الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ١٩٩٧/٢٨٣٤

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى ــ ١١٢٣١